



دكتور محمد خليفة حسن

آثار الفكر الاستشرافي في المجتمعات الإسلامية

تأسس



الطبعة الأولى

1994

المحتوى

د . احمد ابراهيم الـ جـارـى

د . شريف عبد القوى حبيب

د . طه العسوي - على

د. ناصر مجدد قاسمی

مدير المكتب: محمد عبد الرحمن عطيف

تصنيف الفلاسفة: محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمي - اسيوط - البريد - ج.م. - تليفون : ٢٨٥١٣٧٦

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾

(البقرة : ١٢٠)

﴿يا أيها الذين آمنوا إن طباعوا فريقا من الذين أتوا الكتاب

يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾

(آل عمران : ١٠٠)

صدق الله العظيم



www.lisanarb.com

المحتويات

صفحة

٩ تمهيد.....

الفصل الأول :

١١ الآثار السلبية للفكر الاستشرافي في المجال الديني

١٣ ١- إثارة الشكوك في العقبة

١٩ ٢- تشويه صورة الإسلام في الغرب

٢١ ٣- التعظيم من شأن الفرق الدينية

٢٨ ٤- التركيز الاستشرافي على الطوانف والأقلبات في المجتمع الإسلامي ..

٣١ ٥- التمكين للصهيونية في العالم العربي

٣٣ ٦- التمكين للتنصير في بلاد المسلمين

الفصل الثاني :

٣٧ الآثار السياسية للاستشراق في المجتمع الإسلامي

٣٧ ١- دور الاستشراق في التسخين للاستعمار في العالم الإسلامي

٣٩ ٢- بعث القوميات في العالم الإسلامي

٤٢ ٣- إسقاط الخلاقة الإسلامية

٤٧ ٤- تحجزة الأمة الإسلامية

٤٨ ٥- نشر النظم السياسية الغربية في المجتمعات الإسلامية

الفصل الثالث :

الأثار الاجتماعية للفكر الاستشاراتي في المجتمع الإسلامي ٥٣

١- الخلفية الاجتماعية للمستشرين

وأثرها في فهم النظام الاجتماعي في الإسلام ٥٦

٢- الآثار الاجتماعية السلبية للفكر الاستشاراتي ٥٩

أ- تغريب المجتمع المسلم من خلال التأثير على قيم الأسرة المسلمة ٥٩

ب- الهجوم الاستشاراتي على المرأة المسلمة ٦٢

أولاً: المقابلة بين وضع المرأة المسلمة والمرأة الغربية

وبيان معانٍ ووضع المرأة المسلمة ٦٥

ثانياً: مسألة تعدد الزوجات ٧٠

الفصل الرابع :

آثار الفكر الاستشاراتي في المجال الاقتصادي ٧٩

١- دور الغرب في تدهور الاقتصاد الإسلامي ٧٩

٢- الصحوة الإسلامية وإصلاح النظام الاقتصادي ٨٢

الفصل الخامس :

الأثار السلبية للاستشارات في المجال الشعائري والفكري ٨٧

١- تشتيت الجهد الفكري والثقافي للمسلمين ٨٩

٢- نشر القيم الغربية ٩٣

٩٥	٣- نشر الفكر غير العقلى
٩٧	٤- تشجيع الثقافات القومية

الفصل السادس :

١.١	الأثار السلبية للفكر الاستشرافي في المجال العلمي
١.٢	١- التشكيك في مصادر العلوم الإسلامية
١.٣	٢- التشكيك في أصالة الفكر الإسلامي
١.٤	أ- التشكيك في أصالة الشريعة والفقه
١١٤	ب- التشكيك في أصالة النحو العربي
١١٦	ج- التشكيك أصالة الأدب العربي
١١٩	د- التشكيك في قدرة اللغة العربية في العصر الحديث
١٢٢	هـ- التشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية

الفصل السابع :

١٢٩	الأثار الفكرية الإيجابية للاستشراق
١٣٠	١- ضرورة عزل الاستشراق عن الاستثمار والتنصير
١٣١	٢- توسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق
١٣٣	٣- تأثير الفكر الاستشرافي في الغرب
١٣٥	٤- تأثير الإسلام في المستشرقين
١٣٦	٥- إيجابيات أخرى

الخاتمة :

١٣٩	سبل مواجهة آثار الفكر الاستشرافي
١٣٩	١- حقائق المواجهة
١٤١	٢- سبل المواجهة
١٤١	أولاً : الدراسة العلمية الوعية للفكر الاستشرافي
١٤٢	ثانياً : العودة إلى الدين والتمسك بتعاليمه
١٤٢	ثالثاً : التحكم في وسائل الإعلام
١٤٣	رابعاً : تنمية الفكر الإسلامي من الإسرائيليات والاستشاريات
١٤٤	خامساً : توفير الكتاب الإسلامي في اللغات الأوروبية
١٤٥	سادساً : إعداد دائرة معارف إسلامية
١٤٦	سابعاً : تحقيق تنمية المجتمعات الإسلامية
١٤٦	ثامناً : تقوية الدعوة وتطويرها كمؤسسة في مواجهة الاستشراق
١٤٧	المراجع والمواثيق

تَهْيَد

يُمثِّل الفكر الاستشرافي في معظمها حركة فكرية غريبة مضادة للإسلام وللمسلمين . وقد ترك هذا الفكر آثاراً سلبية كثيرة في الفكر الإسلامي تظهر بصفاتها واضحة في المجتمعات الإسلامية وفي أنشطتها المختلفة . ويعتبر الاستشراف مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن عملية الفزو الفكري المتواصل للثقافة الإسلامية إذ لا يكاد يخلو مجال من مجالات الحياة الإسلامية من أثر للفكر الاستشرافي . وعن طريق الاستشراف ، يحاول الغرب المعاوقة على مكاسبه الثقافية التي جناها في المرحلة الاستعمارية وتوسيع دائرة نفوذه الثقافي ، وتوجيه الحياة الشرقية عامة ، والإسلامية خاصة ، وجهة غريبة . وعلى الرغم من وجود بعض الإيجابيات للفكر الاستشرافي فإن حجم الآثار السلبية وعمق هذه الآثار في المجتمع الإسلامي لا يمكن مقارنته بالفائدة التي تحققت من خلال الآثار الإيجابية . فالاستشراف أهدافه غريبة خالصة ونتائجها بالنسبة للمجتمع الإسلامي نتائج خطيرة تسعى إلى محور الصفة الإسلامية وطبع المجتمع الإسلامي بطابع الثقافة الغربية .

وفي الصفحتين التاليتين عرض للأثار الاستشرافية في المجالات الدينية والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية ، والعلمية .

ويمتهم هذا العرض ، بابراز الآثار السلبية ، وتوضيح الشبهات الاستشرافية والرد عليها في هذه المجالات المختلفة . ونعرض بعد ذلك لإيجابيات الفكر الاستشرافي حرصاً على موضوعية البحث العلمي . ونختم هذه الدراسة بخاتمة توضح سُبُل مواجهة آثار الفكر الاستشرافي في المجتمعات الإسلامية ، راجين الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين إلى تخلص فكرهم مما تسرب إليه من أنكار أجنبية ، والعودة إلى الفكر الإسلامي في مصادره الأصلية في القرآن الكريم والسنّة النبوية .



الفصل الأول

الآثار السلبية للفكر الاستشرافي في المجال الديني

يعتبر مجال العقيدة الإسلامية من أهم المجالات التي اهتم بها المستشرقون ووجهوا لها النصيب الأكبر من دراساتهم ، فقد نشأ الاستشراف في مجال الدراسات الإسلامية أصلاً لدراسة العقيدة الإسلامية، والبحث عن الوسائل والعوامل التي يمكن تطويرها لهدم هذه العقيدة وتخريبها وتشويه أصولها . ويعتبر الدافع الديني من أهم الدوافع التي وجهت المستشرقين لدراسة العقيدة الإسلامية ، فمنذ ظهور الإسلام وانتشاره في العالم النصراني القديم اكتشف الغرب أن الإسلام خطر عظيم يهدد النصرانية في عقر دارها وعندما فشل الغرب في المواجهة السياسية والعسكرية مع المسلمين ، ولم يتمكن من وقف الإسلام وانتشاره السريع في البلاد النصرانية وغيرها من بلاد العالم القديم اتجه إلى دراسة الدين الإسلامي دراسة دينية عقدية متعمقة من أجل وضع الخطط الدينية والفكرية للدفاع عن النصرانية بالوسائل الفكرية بعد فشل المواجهة العسكرية . وهكذا تفرغ عدد من علماء النصرانية واليهودية للتخصص في العقيدة الإسلامية ، والبحث في أنجح الوسائل الفكرية لنقد الدين الإسلامي وتحريمه وتخريفيه ، وتشويه صورته عملاً على منع انتشاره بين النصارى واليهود من ناحية ، ولتشكيك المسلمين أنفسهم في أمور دينهم وعقيدتهم من ناحية أخرى . ومع تطور الدراسات الاستشرافية في العقيدة الإسلامية جمع

المستشرقون بين الهدف الدفاعي عن اليهودية والنصرانية ضد الإسلام - وبين الهجوم على الإسلام في محاولة يائسة لوقف تقدمه ومنع انتشاره ، وفي هذا يقول د. حسن المعايرجي: «وقد غزا هذا الهجوم الفكري والعقيدى وشب حتى وصل إلى مرحلة متطرفة في عصرنا الحاضر ، وهو هجوم من شعبتين : شعبة موجهة إلى الشعوب المسيحية لتحقيبها ضد الإسلام الذي انتشر واتسع نفوذه وذلك بتشويه صورته وتجريحه ، والقبح فيه، ونقده والتطاول عليه وعلى القرآن وعلى بنى المسلمين ، مما كون ما يشبه الجدار السميك من الأفكار السوداء عن هذا الدين الخنيف ... أما الشعبة الثانية فهي الشعبة الموجهة إلى المسلمين فيما نراه من هجمات تبشيرية بشعة على أمّة الإسلام ... إن هذا الهجوم العقيدى الفكرى ... أخذ يتتطور مع السنين حتى أصبح علمًا أو علمًا لها مدارس ومناهج . وما الاستشراق ومقارنة الأديان ومعاهد الدراسات الشرقية في الجامعات الغربية إلا من ثمار هذا الهجوم الفكرى » (١) .

وعلى الرغم من أن الاستشراق لم يتمكن عبر تاريخه الطويل من تحريف العقيدة الإسلامية وفشل في تحقيق هدف تشويه الدين الإسلامي ، فقد نجح في إثارة العديد من المشاكل الدينية والقضايا العقدية التي شغلت المسلمين من ناحية في الرد على شبّهات الاستشراق في مجال العقيدة ، ودفع المسلمين إلى اتخاذ موقف الدفاع ضد الاستشراق ، الأمر الذي كان له تأثيره على الفكر الإسلامي الحديث ، وصيغه بالصيغة الداعية ، وابعاد العلماء المسلمين عن الدراسة العلمية المعمقة في أمور دينهم ، والسعى إلى حل القضايا الإسلامية المعاصرة من خلال

التأمل العميق في تراثهم الإسلامي، وإيجاد الحلول المناسبة لدينهم وحضارتهم لشكل الحياة الإسلامية الحديثة وقضايا التنمية التي تواجهها البلاد الإسلامية. لقد نجح الاستشراق في جذب الفكر الإسلامي الحديث إلى النظر في المشاكل والشبهات التي يشيرها المستشرقون، ووضع المسلمين في موقف الدفاع، وصرف نظرهم عن التعمق في دينهم وأجبرهم على متابعة القضايا الكيدية، والشبهات والتحريفات، والأباطيل التي امتلأت بها الكتابات الاستشرافية.

ومن الممكن إحصاء الآثار السلبية للفكر الاستشرافي في المجال الديني فيما يلى :

١- إثارة الشكوك في العقيدة :

عمل الاستشراق على إثارة الشكوك لدى فريق من العلماء المسلمين في عقيدتهم ، وفي القيم الدينية والحضارية المنبثقة عن هذه العقيدة ، وقد كان التأثير الفكري الاستشرافي عظيما في عدد من هؤلاء المسلمين الذين تعلموا في الغرب ، أو الذين تحقق لهم نوع من الاتصال بالغرب وحضارته ومؤسساته الثقافية ، فأصابهم ما أصاب الغرب عامة من هجر للدين ، واحتقار له ، والفصل بينه وبين أمور الدنيا . وقد خضع هؤلاء للقيم الغربية وتآثروا بمعطيات الحياة الغربية ، وحاولوا نقل قيم الحضارة الغربية إلى عالمنا الإسلامي على اعتقاد منهم بأفضلية هذه القيم على القيم الإسلامية نتيجة الانتهار الشديد بحضارة الغرب وتقدمه العلمي والتكنولوجي ، والأخذ بمظاهر الحضارة الغربية ، والاعتقاد في عجز الحضارة الإسلامية عن استيعاب العلم الحديث والتكنولوجيا الغربية بسبب ارتباط حضارة الإسلام بالدين الإسلامي . ونادوا بفصل الدين عن

الدنيا ، وعزل الإسلام عن حضارته معتقدين أن التخلف العلمي لل المسلمين في العصر الحالي سببه ارتباط المسلمين بدينه بينما تقدم الغرب لأنّه هجر الدين وفصل بين الدين والدنيا .

ومن الواضح تأثير هؤلاء بالظاهر المادية للحضارة الغربية وعدم تعمقهم في فهم المشاكل الحضارية التي نجحت عن الاستغراق في الحضارة المادية حين انفصلت عن الدين ، وأصبحت بلا رقيب ديني أو أخلاقي يوجهها ، ويحدد لها هدفها ومسيرتها . كما أنهم لم يتعمقوا في فهم دينهم الإسلامي وتراثهم وحضارتهم الإسلامية ويدل تاريخ الحضارة الإسلامية دالة حاسمة على إمكانية قيام حضارة مادية معتمدة على قيم دينية وأخلاقية تحرسها ، وتضمن لها استمرارها وصلاحيتها ، وتبعدها عن السقوط في شرور المادية المطلقة التي وقعت فيها الحضارة الغربية الحديثة . لقد حققت الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها أقصى مراحل التقديم العلمي بسبب انساقها عن الدين الإسلامي ، وأخذها قيمها ومبادئها عن هذا الدين ، فكانت حضارة صالحة لكل زمان ومكان ، وخالية من المناسد والشرور التي تنتع عن سيادة المادة على الحياة الإنسانية .

كما أثيرت الشكوك لدى بعض المسلمين في العديد من الموضوعات الدينية من بينها التهوي من أمر الكتب المقدسة ، والنظر إلى القرآن الكريم والمحدث النبوى ومصادر العقيدة الإسلامية على أنها خاضعة للنقد العقلى ، وغض المسلمين على ضرورة التحرر في دراسة هذه الكتب والمصادر الدينية وإخضاعها للرؤى النقدية العقلية ، وبالتالي التقليل

من قداستها والتخفيف من احترام المسلمين لها ، بل والمحض على هجرها واستبدالها بالقوانين الوضعية والقيم الإنسانية التي لاتستند إلى مصدر إلهي . والنظر إلى العديد من العقائد على أنها أمور غبية وأسطورية لا يستطيع العقل الإنساني ثباتها ، وبالتالي لابد من اخضاعها للدراسة النقدية العقلية وهجر كل ما يرفضه العقل .

وتأثير بعض المسلمين بهذا الاتجاه الاستشرافي العلماني هو نتيجة الجهل بطبيعة الدين الإسلامي ، وهو دين العقل والفطرة السليمة ، والذي لا يتناقض والعقل في كبيرة أو صغيرة ^(٢) فهو الدين الداعي إلى إعمال العقل في أمور الدين والدنيا ، والداعي إلى ضرورة وأهمية التعلق والتدبر والتأمل والتفقه وغير ذلك من العمليات العقلية التي دعا إليها القرآن الكريم والحديث النبوى ، والدين الإسلامي يدعو إلى استخدام العقل في فهم الدين وتفسير الوحي الإلهي ، واستنباط الأحكام والأدلة ، وفي تنظيم شئون الدنيا وتجاهل هؤلاء العلماء الخلفية التي دفعت المستشرقين إلى التقليل من شأن الدين والوحى ، وما نتج عنه من تقديس للعقل وعبادة له . فالأحكام التي أراد المستشرقون نشرها بين المسلمين فى شأن القيمة المطلقة للعقل الإنساني تستند إلى خلفية فكرية غريبة خالصة لا صلة لها بطبيعة الدين الإسلامي وطبيعة عقيدته الفراء . فالمستشرق ابن بینته الثقافية ، وهو كفربي - نصراني أو يهودي - اكتشف منذ زمن طويل عقم الديانتين النصرانية واليهودية ، وعجزهما عن مواجهة الحقائق العلمية التي أتى بها عصر النهضة الأوروبية والثورة العقلية التي تحقت في ذلك العصر الذي دخل بالغرب في عصر العلم والتكنولوجيا .

وهنا يجب تنبئه المسلمين - خاصة المتأثرين منهم بالاستشراق واليهوديين بنتائجها - إلى حقيقة أساسية في الدراسات الاستشراقية خاصة في مجال العقيدة الإسلامية . وهذه الحقيقة هي أن الأحكام الاستشراقية والأراء التي قيلت في شأن العقيدة الإسلامية هي في حقيقة الأمر أحكام وأراء وضع في شأن الديانتين النصرانية واليهودية أصلا . فقد نتج عن ارتفاع شأن العقل في الغرب منذ عصر النهضة الأوروبية أن تم إخضاع الدين للعقل فأصبح الدين في الغرب موضوعاً للعقل والتحليل العقلي . ونتج عن النقد العقلى لليهودية والنصرانية - وهو الديانتان الأساسيتان في الغرب في عصر النهضة - اكتشاف ضعف الأساس العقلى لهاتين الديانتين . وهو اكتشاف منطقي ومعقول ، ولم يكن نتيجة تعسف أو مغالاة في استخدام العقل في فهم اليهودية والنصرانية . فمن المعروف لنا كمسلمين أن اليهودية والنصرانية تم تحريفهما على يد المعتقدين فيهما ، وتحولت الديانتان بسبب كثرة التبديل والتعرif من ديانة حتى وحي يعتزم العقل وبغض على استخدامه إلى ديانتين أسطوريتين خرافيتين ، وذلك لكثره ما دخل فيهما من معتقدات وثنية ، ومن عناصر دينية غريبة على التوحيد والروحى وبعيدة عن متناول العقل الذي فشل في تقديم تبريرات عقلية للساد الأسطورية الوثنية التي تسربت إلى الديانتين .. وقد فشلت الديانتان في الاختبار العقلى الذي نصبه لهما عصر النهضة الأوروبية بعبائله وشباكه العقلية البحتة . وخلال هذه الحملة العقلية على اليهودية والنصرانية تم اخضاع كتبهما المقدسة للدراسة العقلية الناقدة . وكما فشلت الديانتان في الاختبار ، كذلك أيضاً أثبت البحث العلمي النقدي

للعهد القديم والعهد الجديد أنهما كتابان من وضع الإنسان ، ومتنان بالكثير من المادة غير العقلية أى التي لا يقبلها العقل ، وهي المادة الأسطورية الخرافية التي تسررت إلى هذه الكتب من الوثنيات المحيطة بهما في بيئة الشرق الأدنى القديم .

وعندما نجح علماء نقد الكتب المقدسة في الغرب في نقد اليهودية والنصرانية وكتب المهددين القديم والمجدید اعتقد بعض المستشرقين أن المنهج العقلى الذى تم تطبيقه على اليهودية والنصرانية صالح للتطبيق على الإسلام وأن الأسلوب المستخدم في نقد المهددين القديم والمجدید صالح لنقد القرآن الكريم .

وقد أخطأ الاستشراق عدة أخطاء حين استعار منهج العلماء الغربيين الناقدين لليهودية والنصرانية لنقد الإسلام وكتابه الكريم ، وقد أخطأ المؤثرون بالاستشراق من علماء المسلمين حين جهلوا هذه الخلفية الثقافية للمناهج الاستشرافية ، وحين تجاهلوا الأساس العقلى للدين الإسلامي دين العقل والفطرة ، وخلو هذا الدين الحنيف وكتابه العظيم من الأساطير والخرافات التي اتھمت بها عن حق اليهودية والنصرانية .
وأخطأ الاستشراقي الأول يكن فىأخذ منهج غربى صالح للتطبيق على اليهودية والنصرانية وتطبيقه عن تعسف على الإسلام . وأخطأ الثانى يتضاع فى تجاهل طبيعة الأسباب التى أدت إلى تطور المنهج الندى العقلى فى الغرب ، وأن هذه الأسباب لم يكن لها وجود بالنسبة للإسلام . وأخطأ الثالث عدم الاعتراف بالاختلافات الجوهرية بين الإسلام من ناحية واليهودية والنصرانية من ناحية أخرى ، والالتزام بمنهج واحد

فى دراسة هذه الأديان مجتمعة . أما الخطأ الرابع فبظاهر فى سوء استخدام المنهج العلمي النقدى ، وهو استخدامه فى حالة الإسلام من أجل التشويه فقط لا غيره ، فهو سلاح نجح مع اليهودية والنصرانية ولا مانع عند المستشرق المغرض غير الموضوعى من استخدامه لتشويه صورة الإسلام مع علمه التام بعدم صلاحية هذا المنهج لدراسة الإسلام .

ويعتبر المستشرق اليهودى اجناس جولدتسىهر المسئول الأول عن استعارة هذا المنهج الغربى فى تقد اليهودية والنصرانية وتطبيقه على الإسلام دون مراعاة للاختلاف الجوهرى بين الإسلام وهاتين الديانتين من حيث عقلالية الإسلام فى مقابل أسطورية اليهودية والنصرانية ، وكذلك بالنسبة لكمال الإسلام كدين فى مقابل التطوير التاريخى الذى مرت به اليهودية والنصرانية . فقد اعتبر جولدتسىهر الإسلام ديناً متتطوراً مثله مثل اليهودية والنصرانية ، بمعنى أنه خاضع للعوامل التاريخية وما تركه من مؤثرات على الدين . ولذلك فقد أخضع جولدتسىهر الإسلام لمنهج التأثير والتأثر^(٣) اعتقاداً منه فى أن الإسلام مر بمراحل تطور ، وتأثر بغيره من الأديان ، ولذلك يجب إخضاعه لمنهج النقد التاريخى الذى أخضعت له من قبل اليهودية والنصرانية . وهى بلا شك محاولة بغيضة من جولدتسىهر للقضاء على أصالة الدين الإسلامي ، والحكم عليه بأنه استمد معتقداته من ديانات سابقة عليه أو لاحقة به ، وبأنه دين خاضع للتطور مثله مثل بقية الديانات وخاصة اليهودية والنصرانية ، وكما هو معروف فإن جولدتسىهر هو صاحب نظرية التطور الدينى للإسلام^(٤) والتى طبقها على العقيدة والشريعة على وجه الخصوص .

ويجب التنبئ على الدراس المسلم للاستشراق أن يهتم بتتبع الخلفية الثقافية للاستشراق والمستشرقين ، ومعرفة المنهج الاستشرافي ومصادره في الفكر الغربي ، ونقده من حيث عدم صلاحيته للتطبيق على الإسلام وحضارته ، إذ لم يفرق المستشرق بين مشاكل اليهودية والنصرانية ، واعتبرها مشاكل عامة لكل الأديان ، ومن بينها الإسلام . وطبق نفس المنهج بدون تبييز ، وفي حالة تطبيق المنهج الندوي الغربي على الإسلام كان القصد الاستشرافي الأساسي هو تشويه الدين الإسلامي ، والنيل من أصلته، وربطه بالديانات الأخرى ، والقول بأنه متأثر بها بهدف تضليل الشخصية الدينية المستقلة للإسلام كدين والتشكيك في كماله^(١٥).

٢ - تشويه صورة الإسلام في الغرب :

ومن الآثار السلبية للفكر الاستشرافي تشويه صورة الإسلام والمجتمع الإسلامي في الغرب . ويعتبر هذا الأمر من أخطر الآثار السلبية للاستشراق . فالمسلمون في بلادهم ثابتون على عقيدتهم ، عاملون بها ومطمئنون إليها ، بينما صورة الإسلام خارج العالم الإسلامي يتم تشويهها وتقديمها في صورة مزيفة غير حقيقة بواسطة الاستشراق . وهي صورة تعطي انطباعاً سلبياً للإسلام كدين وحضارة في ذهن الإنسان الذي تلقى معرفته عن الإسلام من خلال المستشرقين الذين يمثلون المصدر المعرفي الأساسي للمعلومات الخاصة بالإسلام وبالمجتمعات الإسلامية . ولا يوجد مصدر آخر للمعلومات يمكن الاعتماد عليه في تحسين الصورة الإسلامية ، أو إحداث التوازن المطلوب وإعطاء البديل المعرفي

للاستشراق . وهنا يجب الإشارة إلى تقصير المسلمين في هذا الجانب : حيث تركوا الاستشراق يسيطر على المعرفة الخاصة بالإسلام في الغرب . والواجب تكثيف المجهود العلمي في دائرة الكتابة عن الإسلام ، وحضارته ، ومجتمعاته في اللغات الأوروبية الحديثة ، وأيضاً الاهتمام بترجمة الكتب الإسلامية الجيدة التي تعطى صورة حقيقة عن الإسلام ، حتى يجد القارئ والمشتغل والتخصص الغربي المادحة الإسلامية التي نطمئن إلى أنها ستقدم المعرفة الصحيحة والجيدة عن الإسلام ومجتمعاته إلى الغرب .

ولا يخفى أن أحد أهداف الاستشراق الأساسية حجب المعرفة الصحيحة عن الإسلام ، حتى لا يزور هذا الدين الكامل في أهل الغرب . وهي حرب فكرية موجهة لمنع انتشار الإسلام في العالم الغربي ، والتعتيم على المشتغل الغربي ، وإعطائه معلومات خاطئة ومضللة عن الإسلام ، وتنفير الغرب منه كدين وحضارة . ولاشك في أن كلمة المستشرقين مسموعة في الغرب ، لأنهم علماء تخصصوا في الإسلام ، وأصبعوا خبراً في شئون المجتمعات الإسلامية ، وما يصدرونه من أحكام وآراء عن الإسلام والمجتمع الإسلامي يتقبله المجتمع الغربي دون أن يشك في صحته . فالمستشرقون هم الحجة في تخصصهم ، وعادة ما يؤخذ برأيهم في كل المسائل التي تخص العالم الإسلامي . وقد اكتسبوا ثقة الإنسان الغربي بما يمثلونه من علم وخبرة نادرة يستعين بها المسؤولون الغربيون في الشئون السياسية ، والاقتصادية ، والفكرية الخاصة بالبلاد الإسلامية .

٣ - التعظيم من شأن الفرق الدينية ودورها في المجتمع الإسلامي :

لابخفى على الدارس المسلم للاستشراف هذا التركيز الشديد على الدراسات الخاصة بالفرق الدينية التي ظهرت في العالم الإسلامي قديماً وحديثاً ، وكذلك الاهتمام بدراسة أوضاع الأقليات غير المسلمة داخل المجتمع الإسلامي . وبهدف المستشركون من وراء هذا الاهتمام إلى تعظيم دور الفرق الدينية في الحياة الإسلامية ، والتهويل من شأن تأثيرها في المجتمع الإسلامي . والقصد من هذا كله النيل من وحدة الإسلام كدين ، ومن وحدة المجتمع الإسلامي ، ووحدة الحضارة الإسلامية . فالصورة التي يقدمها المستشرق تؤكد على عدم وحدة العالم الإسلامي وانقسامه إلى فرق دينية واجتماعية متعددة ، وتزكد أيضاً على وجود عدة عقائد إسلامية ، وبالتالي عدة مجتمعات إسلامية تتبع فيها الحياة وتختلف أشكالها بما يؤدي إلى الاعتقاد الاستشرافي في عدم وجود أمة إسلامية واحدة كما يعتقد المسلمون .

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل يبالغ الاستشراف في الدور الديني للفرق ، فيعتبرها مسئولة عما يسميه بتطور العقيدة في الإسلام ، وتعدد الرؤى العقدية ، مما يعتبره الاستشراف من باب إثارة الإسلام فكريًا من خلال تعدد المذاهب والفرق . وفضلاً عن هدف إظهار الإسلام في شكل الدين الذي يحتوى على عدة مذاهب قديمة تشبيهًا له بالوضع في اليهودية والنصرانية ، فقد اتجه الاستشراف حديثاً ومساعدة التنصير والاستعمار إلى تكوين واستحداث فرق دينية جديدة في المجتمع الإسلامي بهدف زيادة عوامل الفرقة بين المسلمين ، والعمل على خلخلة

التوازن في المجتمع الإسلامي . ومن المعروف الدور الذي لعبه الاستعمار والتنصير بمساعدة الاستشراق في ظهور بعض الفرق المعادية للإسلام داخل المجتمع الإسلامي خاصة البابية والبهائية والقاديانية^(٧) . وكذلك تشجيع الدراسات الخاصة ببعض الفرق القديمة مثل الشيعة والمعتزلة . والحماس الشديد الموجه لدراسة التصوف . والهدف من هذا الحماس العلمي إحياء هذه الفرق القديمة ، وخلق مكان جديد لها داخل الفكر الإسلامي ، والعمل على تفتيت الوحدة الدينية والفكري للمجتمع الإسلامي ، وذلك من خلال تزويده إلى عدة مجتمعات داخلية تختلف في العقيدة والمذهب والفكر .

ولابد من الإشارة السريعة إلى أسباب الاهتمام الكبير الذي أولاه الاستشراق للدراسات الخاصة بالتصوف والذي تفرغ له عدد من عمالقة الفكر الاستشرافي في القرنين الأخيرين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر نكلسون H.Corbin . R . A . Nicholson وهنري كوربيان .Margaret Smith . Massignon . L . ، ومارجرت سميث . هذا بالإضافة إلى مئات من المستشرقين الذين جعلوا من التصوف أحد أبرز اهتماماتهم في الدراسات الإسلامية . ومن أهم هذه الأسباب تشجيع التصوفة والعمل على مساعدتهم في إحياء طرقيهم التصوفية من أجل مزيد من التفتيت للمشاعر الدينية عند المسلمين ، وإظهار المجتمع الإسلامي في صورة المجتمع المفكك دينياً ، والمحظى على العديد من المذاهب المغایرة للعقيدة الإسلامية عند أهل السنة والجماعة ... ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل لقد تطرف المستشرقون أيها تطرف

في النظر إلى التصوف على أنه يمثل الروح الدينية الحقيقة في الإسلام، أو كما يقول الدكتور زقزوقي إنه يمثل عندهم الإسلام الحي: "فإسلام الكتاب والسنّة يعد في نظر مستشرق معاصر مثل كبسنج إسلاماً ميتاً. أما الإسلام الحي الذي يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراوיש في مختلف الأقطار الإسلامية" (٨١) وينظر المستشرقون إلى التصوف على أنه يمثل أقصى مراحل التدين وذروة التقوى والشعور الديني عند المسلمين ..

ومن الأسباب الأخرى الهامة وراء الاهتمام الاستشرافي بالتصوف ، أن التصوف عند المسلمين متأثر بأشكال التصوف المعروفة في عدد من البيانات مثل الهندوكية والبوذية واليهودية والنصرانية . ولهذا فالتصوف عامل تقارب هام بين الإسلام والبيانات الأخرى خاصة النصرانية التي اعتبرها بعض المستشرقين أحد المنابع الهامة للتصوف عند المسلمين . ويرتبط بهذا السبب سبب آخر هام وهو أن التصوف أحد العوامل المساعدة على ضرب أصالة الإسلام واستقلاليته كدين من خلال ربط الإسلام فكريًا ودينيًا بأديان أخرى ، والقول باعتماد الإسلام على هذه الأديان في استعارة معظم عقائده ومفاهيمه .

ويعلم المستشرقون قام العلم أن التصوف يمثل نوعاً من الممارسة الدينية المرفوعة عند أهل السنّة والجماعة ، ولذلك يركزون على دراسته وإبرازه وتصويره بأنه يمثل الروح الدينية الإسلامية الحقيقة ، ويشجعون قيام الطرق الصوفية ، والعمل على انتشارها في العالم الإسلامي حتى ينتهي الأمر إلى تحجزة العالم الإسلامي دينياً ، وتقوية التجزئة الموجودة فعلاً إلى سنّة وشيعة بإضافة التصوف .

والرؤية الاستشرافية للتصرف ترى فيه عاملاً هاماً من عوامل إخلال التوازن الذي حققه الإسلام بين أمور الدين والدنيا . فالحياة الإسلامية حياة متوازنة ، ومفهوم الدين في الإسلام يتصف بالشمولية ، وتغطيبة كل مجالات الحياة الإنسانية ، وكل الأنشطة التي يقوم بها الإنسان ، ويدون تفرقة لما يسمى في الغرب وحضارته بالديني والدنيوي . ومن المعروف أن تاريخ التصور يشهد على تركيز أهل التصور على الديني في مقابل إهمال الدنيوي فضلاً عن الفهم الصوفى الخاطئ لما هو مقصود بالديني . لقد سنت الصوفية لأتباعها نهجاً في الحياة الدينية يقوم على أساس من الزهد في الدنيا والتقاليف، والدعوة إلى التواكل ، وهجر العمل الإنساني ، وعدم الأخذ بأسباب المدنية ، وهجر الحياة المادية بأكملها عند بعض غلاة المتصوفة ، الأمر الذي قرب التصور من الرهبة النصرانية ، خاصة بعد رفع التكاليف الشرعية ، وعدم الالتزام بأدائه العبادات الإسلامية ، والاعتقاد في مفاهيم دينية خاطئة فيما يتعلق بإمكانية الاتصال بالخالق (جل وعلا) أو الاتحاد معه أو تحقيق ما يسمى بوحدة الوجود . وهذه الأمور قربت بين التصور ونظام الرهبة في النصرانية ونظم التصور في الهندوكية والبوذية بعد أن ضاعت معالم الإسلام في المنهج الصوفي . وهو منهج قرئها في الحقيقة من الأديان الأخرى خاصة ديانات التصور ، وأبعدها عن الإسلام دين العمل والتکاليف والعبادات . وقد رفض الإسلام هذا الاتجاه الصوفي برفضه للرهبة ، ونظرته إلى العمل على أنه عبادة وحضة المسلم على إحداث التوازن بين حياته الدينية والدنيوية مصداقاً لقوله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تننس نصيبك من الدنيا »^(١٩) .

ويدخل في الرؤية الاستشرافية للتصرف اقترابه من النصرانية وهو أمر يشجع عليه المستشرون عامة والنصارون منهم خاصة . وذلك لأن فى التصرف تضييع لشخصية الإسلام كدين مستقل عن النصرانية ، وجذب للمسلمين لكنى يأخذوا بشكل ديني هو أقرب إلى النصرانية منه إلى الإسلام ، فالمعتقدات الصوفية المختلفة فى الألوهية يجعلها قريبة من النصرانية ، خاصة ما أشرنا إليه من اتحاد ، وتجسيد ، وحلول ، ووحدة وجود . فهذه كلها مصطلحات للألوهية معروفة في النصرانية ، وقد قال بها بعض غلاة التصرف مثل الحجاج وابن عربى .

وهذه كلها مصطلحات صوفية تشير إلى معتقدات صوفية مرفوضة إسلامياً ، ولا تتفق مع النظرة الإسلامية إلى طبيعة الألوهية ، وطبيعة العلاقة بين الإلهية والإنسانية . وهى علاقة قامت على أساس من طاعة المخلوق لإرادة الخالق سبحانه وتعالى ، واستسلام الإرادة الإنسانية لل Messiha الإلهية ، وعدم الخلط بين الإلهي والإنساني ، وتنتزه الله سبحانه وتعالى عن الخلق ، والامتناع عن تصويره أو تجسيده أو التمثيل به فى أية صورة من الصور « ليس كمثله شئ »^(١) . والتشدد على إنسانية الإنسان ، وعدم الإرتقاء به ، أو الخروج به من دائرة الإنسانية إلى أية مرتبة تقريره من الألوهية وتخلطه بها . كما فعلت الصوفية حين قالت بفأديم الخلول والاتحاد ، أو اتحاد الإنسان في الوجود كما يقول أصحاب وحدة الوجود . فقد فصل الإسلام فصلاً قاطعاً بين طبيعة الله وطبيعة الإنسان ، وأكيد على اختلاف الذات الإلهية عن الذات الإنسانية ، واعتبر العلاقة القائمة بين الإنسان والله سبحانه وتعالى هي علاقة الطاعة ... طاعة المخلوق لإرادة الخالق.

ويجب أن نوجه الأنظار هنا إلى أن تشجيع الاستشراق للتصوف -نظريًا على مستوى الدراسة ، وعمليًا على مستوى تشجيع التصرف والعمل على انتشاره في العالم الإسلامي -، إنما هو سعي إلى تأكيد شبهة استشرافية أساسية يحاول الاستشراق إثباتها وتأكيدها من كل الوجوه ، ألا وهي شبهة عدم أصالة الإسلام كدين ، والإدعاء بأن الإسلام مأخوذ من ديانات سابقة . فهو إعادة صياغة لمناهيم دينية وجدت في البهودية ، والنصرانية ، والهندوكية ، والبوذية وغيرها من الأديان . وقد انصبت العديد من الدراسات الاستشرافية على هذا اللون من الدراسات الذي يرد تعاليم الإسلام وعباداته إلى أصول في الديانات الأخرى . ويأخذ المستشرقون في هذا المخصوص ببدأ التأثير والتأثر والقول بأن الدين السابق يؤثر على الدين اللاحق . ولأن الإسلام هو آخر الأديان الكبرى فقد أخذ مفاهيمه الأساسية من الديانات السابقة عليه^(١١).

ومن أشكال الدراسات الاستشرافية الساعية إلى إحداث التغيير الديني في المجتمعات الإسلامية تلك الدراسات الخاصة بالفرق المخالفة للإسلام ، وعلى رأسها فرق الشيعة والفرق التي ظهرت حديثاً في المجتمع الإسلامي ، مثل البهائية والبابية وغيرها . وتخدم دراسات الشيعة والفرق الحديثة عدة أهداف استشرافية منها خلخلة الرحمة الدينية للمسلمين ، والعمل على تحزننة الأمة الإسلامية الواحدة إلى عدة أمم ، وتشجيع الشيعة والفرق الأخرى على الثورة والتمرد ومحاربة مجتمع أهل السنة والجماعة . وقد حقق الفرب حديثاً وبإيعاز من

الدراسات الاستشرافية ، وتقارير الخبراء العاملين في الجهات الحكومية المسئولة في الغرب ، نجاحاً في إثارة الشيعة - مثلاً بالذات في إيران - ودفعها إلى إثارة التلاقل في المجتمع الإسلامي ، وتصدير أفكار «الثورة الإيرانية» إلى خارج إيران في محاولة لنشرها في العالم الإسلامي بشتى الوسائل الممكنة ، ومحاولات نشر الأفكار الشيعية في الجمهوريات الإسلامية الجديدة التي استقلت حديثاً عن الاتحاد السوفييتي المنحل ، والقيام بدور بارز في توجيه هذه الجمهوريات الوجهة التي تخدم الأهداف الإيرانية المتعددة ، ومن بينها هدف نشر المذهب الشيعي . وتجدد الفرق البهائية والبابية والبكداشية تشجيعاً كبيراً من الغرب . ويساعد الاستشراف مساعدة كبيرة في دراسة هذه الفرق وتأصيل مفاهيمها ونشر نصوصها ، والتعریف بزعامتها ، وتقديم العون العلمي اللازم لأبنائهما للدراسة في جامعات الغرب ، ويعاملهم الغرب بشكل عام على أنهم مضطهدون في العالم الإسلامي ، وواقعون تحت الاضطهاد الإسلامي فيسمحون لهم باللجوء إلى الغرب ، ويبينون لهم المعابد والمحافل الضخمة التي يمارسون فيها شعائرهم وحياتهم الدينية ، ويؤكدون فيهم التزعة المستقلة عن الإسلام والمسلمين ، ويدفعون بهم إلى التمرد والثورة ضد المسلمين ، والكتابة ضد المسلمين . ويشير الدكتور زقزوقي إلى الاهتمام الاستشرافي بالفرق في قوله : «يؤكد الاستشراف بوضوح ظاهر على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام كالبابية والبهائية والبكداشية وغيرها ، من فرق قدية وحديثة ، ويعمل على تعميق الخلاف بين السنة والشيعة ، والمستشركون يعدون المنشقين عن الإسلام على الدوام أصحاب فكر ثوري تحرري عقلي ، ودائماً يهتمون بكل غريب وشاذ»^(١٢).

٤ - التركيز الاستشرافي على الطوائف والأقليات في المجتمع الإسلامي :

بالإضافة إلى الاهتمام الاستشرافي بالفرق الإسلامية وجه الاستشراق جانباً كبيراً من جهوده إلى دراسة وضع الطوائف والأقليات في المجتمعات الإسلامية ، والهدف من هذه الدراسات يقترب كثيراً من هدف دراسة الفرق المخالفة للإسلام : حيث يركز الاستشراق على إظهار المجتمع الإسلامي بظاهر المجتمع المكون من عدة طوائف وأقليات لها مذاهبها المختلفة ولها عاداتها وتقاليدها المتباينة ، ولها حياتها الخاصة داخل المجتمع الإسلامي ، الأمر الذي يظهر هذا المجتمع في النهاية بأنه يتكون من عدة مجتمعات مختلفة لا تجمعها رابطة . وتغيل بعض الدراسات الاستشرافية إلى التضخيم من حجم الأقليات والطوائف والتعظيم من دورها في الحياة الإسلامية وفي الحضارة الإسلامية ، مما يوحى في النهاية إلى أن هذه الحياة والحضارة الإسلامية ليست من صنع المسلمين ، ولكنها من نتاج هذه الطوائف والأقليات ، وأن النتاج الفكري والحضاري الإسلامي إنما هو من عمل اليهود والنصارى والمجوس والهندوس وغيرهم من أهل الأديان والحضارات الأخرى .

وعادة ما يعمد المستشرقون إلى إظهار الطوائف والأقليات في صورة مجتمعات مضطهدة داخل المجتمع الإسلامي بهدف تشويه صورة الإسلام خاصة في الغرب وإظهاره في صورة الدين المتطرف المضطهد لطوائفه غير المسلمة . وتحث الدراسات الاستشرافية أهل الطوائف والأقليات على التخلص من الاضطهاد المزعوم ، وتشجيع الطوائف على التمرد

والثورة وإثارة الفتن والاضطرابات داخل المجتمع الإسلامي ، وهى إحدى وسائل الاستشراق من أجل زعزعة المجتمع الإسلامي وإضعافه من الداخل . ويرتبط بهذه الدعوة الاستشرافية بث النزعية القومية لدى الطوائف والأقليات ونشر الدراسات التى تحاول إثبات اختلافها عن الأمة الإسلامية ، وتحديد هوية قومية لها ، ودفعها إلى المطالبة بالاستقلال وأشكال الحكم الذاتى التى تضمن لهم بلوحة وتطور شخصيتهم القومية ، وتعزلهم عن المجتمع الإسلامي ، وتقطع لهم أجزاءً من العالم الإسلامي بهدف تجزئته هذا العالم وشرذمته وتقسيمه إلى دوليات طائفية لاضعافه والقضاء على وحدته . ويجب أن نشير في هذاخصوص إلى أن العديد من المستشرقين عملوا كضباط وجند وموظفين في الدوائر الاستعمارية لبلادهم في بلاد المسلمين ، وقد لعبوا دوراً أساسياً من خلال دراساتهم النظرية وجهودهم العملية في دفع أهل الطوائف والأقليات إلى المطالبة بالاستقلال القومي عن الحكومات الإسلامية ، وبالحكم الذاتي في بعض المناطق ، من أجل مساعدتها على تكوين جماعات سياسية وكيانات قومية مناهضة للحكم الإسلامي . وقد سعت الدراسات الاستشرافية في هذاخصوص إلى تنمية الصراع بين المسلمين وغير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، وهو صراع اتخذ شكلاً في الدراسات الاستشرافية : الشكل السياسي الذي يسعى إلى إثارة القوميات وبعث الروح القومية لدى الأقليات ، ويسير ذلك نظرياً من خلال الدراسات التي تحاول تأصيل الفكر القومي للأقليات ، وعملياً من خلال تقديم العون السياسي اللازم لمساعدة الأقليات على تحقيق

هويتها القومية، ومن ثم تحقيق الاستقلال عن الأمة الإسلامية والانفصال عنها .

أما الشكل الثاني فهو شكل ديني يعمل على تنمية الصراع الديني بدفع الأقليات إلى التحول إلى جماعات دينية داخل المجتمع الإسلامي ، ويربط هذه الجماعات الدينية بأطر قومية ، ودفعها إلى تحقيق الاستقلال الديني والسياسي عن الأمة الإسلامية مصوّرين لهذه الطوائف والأقليات أن خلاصها يتمثل في خروجها على الأمة الإسلامية وانفصالها عنها . وقد مارس الاستشراق هذا الدور بشكل واضح في مصر مع الأقباط مشجعاً الفكر القومي عندهم ، ومحولاً نصارايتهم إلى نصرانية تفصلهم عن المسلمين في مصر . ويظهر هذا أيضًا في إحياء الزعامة القومية لدى السوريان في العراق وسوريا ولبنان ومساعدتهم في تكوين رؤية قومية دينية تظهر في محاولات إحياء اللغة السوريانية كلفة للحديث ، وتشجيع الإزدواجية اللغوية بينهم . وهناك مؤسسات استشرافية خاصة في بلاد الشمال الأوروبي مثل هولندا وبلجيكا تعمل على إحياء السوريان كشعب وتشجيع بقایا السوريان في العراق وسوريا ولبنان على تكوين رؤية قومية دينية خاصة بهم . وقد وصل هذا التشجيع إلى حد تخصص بعض هذه المراكز في مسألة إحياء اللغة السوريانية كلفة للحديث والكتابة بين السوريان . وتقوم هذه المراكز بطبع الكتب التعليمية الحديثة في اللغة السوريانية وتعيد طبع المزلفات السوريانية القديمة ، وتشجع على التأليف الحديث في اللغة السوريانية إلى غير ذلك من الجهود الساعية إلى إحياء اللغة كإحدى مقومات بع

القومية السريانية ، ويجب أن نشير أيضاً إلى المحاولات العديدة المشابهة التي يقوم بها المستشرقون في بلدان القارة الإفريقية من خلال إحياء اللغات القبلية والقومية ، وترجمة العهد الجديد إلى مئات اللغات واللهجات الإفريقية ، من أجل تيسير التنصير ، وتشجيع عملية إحياء هذه اللهجات كعامل قومي هام في بعث النزعة القبلية والقومية لدى العديد من الأفارقة .

٥ - التمكين للصهيونية في العالم العربي :

ويذكرنا الحديث عن بعث القوميات واللغات القومية بالجهود التي بذلها الاستشراق ، خاصة الاستشراق اليهودي والصهيوني ، من أجل بعث القومية اليهودية، وتمكين اليهود من تكوين رؤية قومية يهودية ، وتحويل اليهود من جماعة دينية إلى جماعة قومية ، وربط اليهودية بالقومية فيما عرف باسم الصهيونية ، ولتحقيق هذا قام العمل الصهيوني الاستشراقي على المستوى الفكري والسياسي ببعث اللغة العربية وتحويلها إلى لغة حديثة معاصرة تستخدم في الحديث والكتابة ، والعمل على تفريغ فلسطين من سكانها العرب ، وإقامة دولة يهودية فيها. ويعود للاستشراق الدور الكبير في خلق الصهيونية كفكرة والسعى إلى تحقيقها من خلال الجهد العلمي الاستشراقي سواء على مستوى الدراسات اللغوية لإحياء اللغة العربية ، أو على مستوى الدراسات التاريخية الساعية إلى تأصيل الوجود اليهودي في فلسطين وإثبات الأحقية التاريخية والدينية للبيهود في فلسطين ، والدراسات الأثرية الموجهة لنفس الفرض ، والدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط وشعوبه،

لتقديم العون العلمى فى معرفة العرب وتاريخهم وحضارتهم وديانتهم ، وتوجيه كل هذه المعرفة خدمة المصالح الصهيونية ^(١٢).

وقد كان للاستشراق الصهيوني دور عظيم فى نشر الصهيونية بين اليهود فى بلاد العالم العربى والإسلامى والغربي ، ودفع بهود العالم الإسلامى إلى الهجرة إلى فلسطين بعد إثارة التزعة القومية فيهم. والحقيقة أن يهود العالم الإسلامي لم تكن لهم مشكلة قومية فى ظل الدولة الإسلامية التى رعت حقوقهم ، وحققت لهم التعايش السلمى داخل المجتمع الإسلامي كأهل ذمة ، وأهل كتاب ، فأصبحوا خلال فترات التاريخ الإسلامي مواطنين لهم حقوقهم الدينية والسياسية وعليهم ما على المسلمين من واجبات ... ولم ينجذب يهود العالم الإسلامي إلى الصهيونية إلا بعد ممارسة الضغوط الصهيونية الشديدة عليهم للتنازل عن حياتهم الآمنة فى المجتمع الإسلامي ، والانضمام إلى الحركة الصهيونية فى مراحلها التأخرة . فمن المعروف أن ما يسمى بالمشكلة اليهودية التي أثارتها الصهيونية هي مشكلة أوروبية لم يعان منها يهود العالم الإسلامي ، وقد فرضت القومية اليهودية فرضاً إجبارياً على كل يهود العالم الإسلامي الأمر الذى أدى إلى فساد علاقة يهود العالم الإسلامي بال المسلمين فأصبحوا بانضمامهم للحركة الصهيونية من أعداء المسلمين .

وقد اعتمدت الحركة الصهيونية اعتماداً كبيراً على المستشرقين الصهاينة فى التنظير للفكرة القومية والدعوة إليها بين اليهود . وقد تعاطف المستشرقون النصارى مع اليهود للواقع سياسية ودينية وحضاروية ، فقد اعتبروا فلسطين اليهودية أفضل من فلسطين المسلمة،

فهذا يعد كسباً سياسياً ودينياً للنصرانية في صراعها ضد الإسلام ، بل هو يتحقق عند بعض المذاهب النصرانية شرطاً من شروط القodium الثاني لل المسيح عليه السلام خاصة عند المذاهب الإنجيلية التي تعتبر عودة اليهود وتجمعهم في فلسطين أحد شروط قيامة المسيح عليه السلام^(١٤).

وتعتبر قضية فلسطين من أهم القضايا التي اهتم بها الاستشراق اليهودياً أو نصرانياً ، وقد استخدم الاستشراق أسوأ استخدام حين وجهت الإمكانيات الاستشرافية لخدمة المصالح الصهيونية ، ولم يتوقف هذا الاستخدام السلبي عند حدود توجيهه علوم الاستشراق المختلفة لإثبات دعوى الصهيونية في فلسطين ، بل تعدت هذا الهدف وتجاوزته إلى التشويه المقصود لصورة العرب والمسلمين في الغرب وللدين الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وتقديم المجتمع الإسلامي للغرب في شكل مجتمعات بدائية متخلفة يسودها العنف والإرهاب ، وتصوير المجتمع الفلسطيني خاصة والعربى عاملاً في صورة المجتمعات بعيدة عن المدنية والتقدم ، وأن الحركة الصهيونية هي حاملة راية التقدم والمدنية والناشرة للحضارة الغربية وقيمها في هذه المجتمعات الجاهلة .

٦ - دور الاستشراق في التمكين للتنصير في بلاد المسلمين :

من أهم الآثار الدينية للاستشراق في المجتمعات الإسلامية قيام عدد كبير من المستشرقين بالأعمال الساعية إلى تنصير العالم الإسلامي ، ونشر الثقافة النصرانية في المجتمعات الإسلامية . وقد كان التنصير ولا يزال أحد الأهداف الأساسية للاستشراق ، فقد انتقل الاستشراق من مرحلة الدفاع عن النصرانية قدماً إلى الهجوم على الإسلام ، وذلك من

خلال عدة وسائل من بينها تغريب العالم الإسلامي بنشر الثقافة الغربية فيه ، ومن أخطرها بلا شك توجيه الحملات التنصيرية إلى بلاد العالم الإسلامي لجذب أعداد من المسلمين بوسائل مختلفة إلى اعتناق النصرانية وتشكيك المسلمين في دينهم في حالة عدم النجاح في إدخالهم في النصرانية .

والدور الذي لعبه الاستشراق في مساعدة التنصير وتمكينه من القيام بعمله في المجتمعات الإسلامية ينحصر في إعداد المنصر وتجهيزه بالمعلومات الالزمة عن البلاد الإسلامية : من بينها تعريفه بالإسلام وحضارته ، ولفاته ، ومجتمعاته ، وتاريخه وجغرافيته ، وعمل الدراسات العملية التي تكشف للمنصر مواطن الضعف في المجتمعات الإسلامية ، ودراسة الاحتياجات الالزمة في بعض بلاد المسلمين التي تعانى من الفقر والمرض ، وسد هذه الاحتياجات عن طريق الأعمال التنصيرية المسماة بالأعمال الخيرية التي تهدف أصلاً إلى حل مشاكل بعض المسلمين الاقتصادية والاجتماعية والصحية ، وجذبهم إلى النصرانية من خلال هذه الوسائل التعليمية والطبية والخيرية^(١٥) . وعمل الاستشراق أيضاً من أجل معرفة أفضل الوسائل والسبل لتقديم النصرانية إلى المسلمين ، وذلك من خلال عقد الدراسات المقارنة بين الإسلام والنصرانية ، وتوضيح صلات القرابة بين الديانتين ، والتركيز عليها بهدف اقناع ضعاف المسلمين بأن الإسلام يؤيد النصرانية ويعرف بالسبعين عليه السلام ويعرف بكتاب النصارى دون توضيح الموقف الإسلامي الصريح الواضح من هذه المفاهيم^(١٦) .

ولقد كان الاستشراق ولايزال الوسيلة العلمية التي يستخدمها التنصير للتعرف على أوضاع المجتمعات الإسلامية وسلبياتها ، ووجوه الضعف فيها ، والبحث عن ثغرات لتقديم النصرانية من خلالها إلى المسلمين والتعرف على منافذ للتنصير ، وقد كان للاستعمار في القرنين الأخيرين تأثير كبير في توجيهه ومساعدة التنصير في المجتمعات الإسلامية . فقد وفر الاستعمار الحماية الازمة للمنصرين . وسر لهم حرية الحركة والعمل في البلاد الإسلامية ، وساعدهم في تأسيس مراكز للتنصير ومؤسسات للعمل التنصيري تحت الحماية الاستعمارية . وقد عملت هذه المؤسسات بكل قوة ومن منطلق السيادة السياسية للمستعمر فحاالت بشتى الطرق اختراق المجتمعات الإسلامية ، وبناء الكنائس ، وتنمية الأقلاب النصرانية والاعتماد عليها في عملية التنصير من الداخل ، ومدّها بالأموال والإمكانات الازمة لنشر النصرانية . واهتم الاستشراق التنصيري أيضاً بإعداد ترجمات العهد الجديد إلى لغات العالم الإسلامي ولهجاته ، ونشر الكتب الشارحة للنصرانية ، والتفاسير المختلفة للأناجيل ، والتعريف بالآراء المذهب النصرانية . ويجب أن نشير هنا إلى تعدد جبهات التنصير في العالم الإسلامي : فلكل مذهب نصراني إستراتيجياته ويعثاته التنصيرية . فالاختلاف الجوهرى بين المذاهب أدى إلى أن تقوم كل كنيسة بعملها التنصيري مستقلاً عن الكنائس الأخرى الأمر الذي أدى إلى تشابك العمليات التنصيرية ، واحتلاط الأمر على المسلمين في مواجهتها ، حيث تتطلب هذه المواجهة معرفة جيدة بكل مذهب نصراني على حدة ومواجهة العمل التنصيري حسب اتجاهه الدينى

الكاثوليكى أو البروتستانى أو الارثوذوكسى ، بل هى تتطلب معرفة بالمذاهب الفرعية المنبثقة عن المذاهب الرئيسية : حيث نشطت بعض المذاهب الصغيرة والفرعية فى العمل التنصيرى من وجهة نظرها المذهبية . ويتطلب مقاومة التنصير بذل الجهد الإسلامية حل مشاكل المجتمعات الإسلامية الفقيرة التى تسلل إليها المنصرون مستغلين فقرها واحتياجاتها الاقتصادية ، ويتطلب الأمر سد الحاجات الاقتصادية وتقديم الرعاية الإسلامية الكافية ، وتنمية العمل الدينى والدعوى فى هذه المناطق حتى لا تكون فريسة سهلة للتنصير ، كما يتطلب الأمر سد الطرق أمام التنصير ، وعدم السماح للمؤسسات التنصيرية بمزاولة أنشطتها وتشجيع المؤسسات الإسلامية على تقديم الرعاية الدينية والاجتماعية والاقتصادية لفقراء المسلمين .

الفصل الثاني

الآثار السياسية للاستشراق فى المجتمع الإسلامى

١ - دور الاستشراق في التمكين للاستعمار في العالم الإسلامي :

نشأ الاستشراق وتتطور في ظل الصراع الغربي ضد الإسلام ، وксلاح فكري من أسلحة الغرب الموجهة ضد الإسلام كدين وحضارة .

وواصل الاستشراق دوره كسلاح علمي وفكري منذ بداية الإسلام وحتى وقتنا الحاضر مرتبطا بالحركات الاستعمارية الأوروبية ، ووظيفة الاستشراق السياسية تقديم المعرفة بالأوضاع السياسية ، والدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية الخاصة بالبلاد الإسلامية للقائمين على الحركة الاستعمارية في البلاد الأوروبية المختلفة وذلك لتسهيل عملية الاستعمار ، وتيسير طرق التعامل مع أهل البلاد المستعمرة . ورغم تعدد مراحل الاستعمار فالمرحلة الأخيرة التي تغطى القرنين التاسع عشر والعشرين تعد من أهم هذه المراحل وأخطرها فكريًا وسياسيًا على المسلمين : إذ لم يكتف المستعمر فيها بنهب الموارد الاقتصادية ، وفرض السيطرة السياسية والفكرية ، ولكنه اتجه إلى إحداث التغيير في التفكير السياسي عند المسلمين وإجبارهم على تبني النظم السياسية الغربية والتخلّى عن النظم الإسلامية . وهذا بطبيعة الحال دور فكري قام به الاستشراق السياسي الذي نقد النظم الإسلامية ، ووصفها بالجمود

والتحلف وعدم الصلاحية ، وشرح النظم الغربية ، وبين محاسنها وزبناها في أنظار المسلمين ، وحاول فرضها بالقوة في كثير من الأحوال ، وأعد من بين المسلمين علماء تابعين للاستشراق يروجون للنظريات السياسية الغربية وينشرونها بين المسلمين . وفي الفترة الاستعمارية الحديثة احتلّت عمل المستشرق بعمل المستعمر ، بل وقد كان المستشرق هو المسؤول الاستعماري نفسه حين عين العديد من المستشرقين كموظفي في الدوائر الاستعمارية ، وحين جذب الاستشراق عدداً من الضباط والجنود والترجميين في هذه الدوائر الاستعمارية فوظفوا خبرتهم لخدمة الاستعمار ، وجمعوا بين العمل الاستشرافي والعمل الاستعماري^(١٦) . وبعد انحسار الاستعمار عمل العديد من المستشرقين كخبراء في وزارات الخارجية الأوروبية والأمريكية في مجالات السياسة ، والاقتصاد ، والدين ، والمجتمع لتقديم المعرفة الضرورية عن شعوب المسلمين للدوائر السياسية في بلادهم ، وهكذا جذب العمل السياسي عدداً كبيراً من المستشرقين فساعدوا بلادهم بتقديم المعرفة العلمية والتقارير السياسية والاقتصادية عن البلاد الإسلامية التي تخصصوا فيها ، وشاركوا في وضع استراتيجيات بلادهم والتخطيط لسياساتها في بلاد المسلمين .

ونتيجة لهذا العمل الاستشرافي السياسي عبر قرون من الصراع الغربي ضد الإسلام يمكن الاستشراق من إحداث العديد من التأثيرات السلبية في الفكر السياسي الإسلامي نتج عنها تغييرات خطيرة في مسيرة التاريخ السياسي للMuslimين في القرنين الأخيرين .

٢ - بعث القوميات في العالم الإسلامي :

عمل الاستشراق - كجناح فكري للاستعمار الغربي - على بعث الروح القومية في الشعوب الإسلامية كواحد من الوسائل الهامة في سبيل تجزئة الأمة الإسلامية وتفتيتها إلى عدة شعوب بعيداً عن الرابطة الإسلامية التي ربطت المسلمين عبر العصور. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف نشط الاستشراق نشاطاً علمياً واضحاً في مجال الدراسات القومية التي ركزت على دراسة تاريخ كل شعب إسلامي على حدة ، بهدف تحقيق العزل الديني والثقافي للشعوب الإسلامية عن بعضها البعض ، وإضعاف العامل الديني كعامل أساسى في ربط الشعوب الإسلامية ، وتأصيل الوجود القومي لكل شعب ، وذلك بالعودة إلى التاريخ القديم السابق على ظهور الإسلام ، وعلى دخول الشعوب الإسلامية فيه ، وإبراز الصفات والسمات القومية وإعلانها على السمات الإسلامية ، وتنمية النورة القومية والتزعنة العرقية الانفصالية ، والاتخاذ من التراث التاريخي والحضاري القديم كأساس للتفرقة ، وتفضيل حضارة على حضارة ، والإيحاء بالشعور بالأفضلية العرقية لكل شعب على الآخر . وهكذا أثار الاستشراق بتركيبته على تواريخ ، وحضاريات الشعوب الإسلامية قبل الإسلام التزعيات القومية ، وأثار العصبيات بين العرب من ناحية والشعوب الإسلامية من ناحية أخرى ، وأبرزها إثارة العصبية بين العرب والفرس والترك ، والنجاح في عزل هذه الجماعات من بعضها البعض ، وإخراجها من دائرة الرابطة الإسلامية

الى ربطتها قديماً إلى دائرة الرابطة القومية التي عزلتها حديثاً عن بعضها البعض وجعلتها تتخذ مواقف معادية على المستوى الإقليمي والدولي ، كما يظهر في العديد من المشاكل السياسية والصراعات الإقليمية والحروب العالمية التي اتخذت فيها الشعوب الإسلامية مواقف متضادة استناداً إلى مصالح قومية خالصة .

وقد اتجه المستشرقون المتخصصون في التاريخ الحديث للشعوب العربية والإسلامية إلى عزل تواریخ هذه الشعوب عن التاريخ الإسلامي، ومعالجة تاريخ كل شعب عربى وإسلامى داخل إطار قومى عرقى ، وقد كونوا في هذا نظريات قومية أشاعوها بين العرب وغيرهم من الشعوب الإسلامية ، تؤكد على الجوانب القومية ، وترفع من شأنها ، وتطالب ببعضها من جديد ، وقد نجحوا في ذلك في عدة بلاد عربية وإسلامية. ومن هذا بعثهم للفرعونية في مصر ، والبربرية في الشمال الأفريقي ، والفينيقية في لبنان وسوريا ، والكنعانية في فلسطين ولبنان ، والآشورية في العراق ، والفارسية في إيران ، والقومية التركية في تركيا ... إلخ . ولم يتوقف دور الاستشراق في بعث كل هذه الحركات والنظريات القومية بل أثار النزعة القومية داخل كل بلد إسلامى على حدة وذلك بإثارة العصبيات القبلية والروابط العرقية . كما اهتم الاستشراق بدراسة الأقلبيات داخل كل بلد عربى وإسلامى لتفكيك النزعة الانفصالية لدى أهلها ، وتحريكها إلى المطالبة بالاستقلال وبالحكم الذاتى ، أو غير ذلك من أشكال الحكم التي تحقق فيها انفصالاً عن الأمة وانعزالاً عن بقية أبناء المجتمع الإسلامي ^(١٨) . وينذكر في هذا الخصوص دور

الاستشراق النصراني في إثارة القومية لدى بعض الجماعات النصرانية في العالم العربي مثل الأقباط في مصر ، والوارنة في لبنان ، ودور الاستشراق اليهودي في بعث القومية اليهودية الصهيونية لدى يهود العالم العربي والإسلامي ، وعزلهم عن مجتمعاتهم الإسلامية وإجبارهم على الهجرة إلى فلسطين، والنجاح في إقامة الكيان اليهودي الصهيوني في أرض فلسطين العربية الإسلامية . وداخل هذا الإطار القومي ثارت مشكلة الأكراد في تركيا والعراق وسوريا ، والجماعات الشيعية في العراق ولبنان وبلدان الخليج العربي ، وفي بعض المناطق الأخرى مثل أفغانستان .

ويضاف إلى هذا كله دور الاستشراق الشيوعي في نشر الفكر الشيوعي بأشكاله المختلفة في كثير من بلدان العالم الإسلامي، وفرض نظام سياسي اقتصادي بعيد عن الفكر الإسلامي ومناقض له يتراوح بين الماركسية والاشتراكية . كما سعى الاستشراق الغربي إلى جذب العديد من البلاد الإسلامية إلى النظام الغربي الرأسمالي بآلياته السياسية والاقتصادية ، فضلاً عن نقل فكر هذه الدول الشيوعية والرأسمالية وثقافتها وأساليب حياتها إلى مجتمعاتنا الإسلامية ، مما أدى إلى تفكك هذه المجتمعات ، وفقدانها لوحدتها السياسية والاقتصادية ، وتغير الحياة في بلدان العالم الإسلامي بما يتفق والنظام المستوره . وهكذا تنوعت النظم المستوردة واختفى النظام الإسلامي من حياة المجتمعات الإسلامية بعد سيادة الفكر القومي ، الذي يؤكد على

الاختلاف ، وبغض عليه ، وينصل له بالعودة إلى فترات التاريخ القديم قبل ظهور الإسلام ، والنظر في حياة هذه الشعوب وأساليب حياتها قبل دخولها في الإسلام ، أو من خلال ربطها بنظم حديثة أجنبية ، واستغاث العامل الديني الإسلامي الذي ربط هذه الشعوب ، وجعل منها أمة واحدة .

٣ - إسقاط الخلافة العثمانية :

مثلت الخلافة العثمانية منذ بدايتها وحتى سقوطها وحدة المسلمين كامة من ناحية، واستمرارية نظام الخلافة الإسلامي من ناحية أخرى . ورغم ضعف الخلافة العثمانية في أواخر أيامها إلى الحد الذي سميت فيه « الرجل المريض » فقد كانت رمزاً لهذه الوحدة ، ورمزاً للخلافة التي بدأت منذ الخلافة الراشدة ولم تتوقف حتى سقوط الخلافة العثمانية . وقد تعددت أسباب ضعف الخلافة العثمانية ، وتراوحت ما بين أسباب داخلية تختص بتحلل الخلافة من الداخل ، وأسباب خارجية من أهمها تكالب الدول الغربية الاستعمارية على الخلافة ، وبذلها كل الجهد السياسي والعسكري لإسقاطها والتخلص منها كرمز لوحدة المسلمين ولنظام الخلافة فيهم . ولست هنا في مقام الحديث عن أسباب سقوط الخلافة العثمانية ولكن نرحب فقط في تحديد دور الاستشراق في تحقيق هذه المهمة وهو دور بلا شك عظيم وخطير .

لقد اهتم الاستشراق اهتماماً كبيراً بالنظام السياسي في الإسلام ، وكان موضوع الخلافة من أهم الموضوعات التي أولاه الاستشراق

الاهتمام العلمي والسياسي . وقد علم المستشرقون أن تشويه صورة الخلافة في الماضي وضريها في الحاضر بعد عاماً أساساً في محاربة الإسلام الذي تمكن من خلال الخلافة في عصور قوتها من إرسال الفتوحات الإسلامية إلى البلاد النصرانية ، ومواجهة الجيوش الصليبية ، ومحاربة الاستعمار الحديث منذ القرن الثامن عشر الميلادي . وبذكر للخلافة العثمانية أنها لم تكن مجرد رمز فقط للخلافة الإسلامية ، ولكنها قامت بالفتحات الإسلامية لأول مرة في قلب القارة الأوروبية ، وهو خطير عظيم لم ير به الغرب من قبل في تاريخ علاقته بال المسلمين . لقد ظلت الخلافة في العثمانيين أكثر من خمسة قرون ، وصلوا فيها بفتحاتهم إلى أبواب فيينا ، وأصبحت الخلافة العثمانية تمثل من وجهة نظر الغرب الأوروبي خطراً دينياً وسياسياً على القارة الأوروبية : حيث امتدت أملاك الخلافة داخل القارة الأوروبية ، وانتشر الدين الإسلامي على يد العثمانيين في العديد من البلاد الأوروبية الشرقية ، وأصبحت المواجهة الإسلامية العثمانية للعالم الغربي المسيحي مواجهة مباشرة وعلى الأرض الأوروبية ذاتها ، وقد كان صراع المسلمين مع المسيحيين في معظمها قبل ذلك التاريخ خارج القارة الأوروبية .

وفى ظل هذه المواجهة بدأ الغرب الأوروبي يضع خططه لوقف المد الإسلامي ، ومنع الإسلام من الانتشار في بقية القارة الأوروبية ، وهى المشكلة التي أطلقوا عليها اصطلاحاً اسم « المشكلة الشرقية » أو « المسألة الشرقية » .

ومن أول أسلحة المواجهة الأوروبية مع الخلافة العثمانية دفع المستشرقين إلى التخصص في الدراسات العثمانية ، بهدف تحليل أوضاع الخلافة العثمانية في الداخل ومعرفة أحوالها في البلاد الأوروبية التي وقعت تحت سيادتها ، ومعرفة تأثيرها في البلاد الأوروبية الواقعة على حدود الخلافة العثمانية . وقد بدأ المستشرقون في بذل الجهد . العلمية المضنية في تغطية الأوضاع السياسية ، والاقتصادية ، والدينية ، والاجتماعية لبلاد الخلافة العثمانية للتعرف على مواطن الضعف فيها والبحث عن سبل تقويض الخلافة من الداخل ، وإثارة التزعزعات القومية عند الشعوب الخاضعة لها ، واستقطاب الشعوب العربية والإسلامية ضدها ، والعمل على تغريب المجتمع التركي من الداخل ، إلى أن نجح الاستشراق في التمهيد لوضع نهاية سياسية للخلافة العثمانية من خلال الدراسات المجتمعية التي قدمها الاستشراق لدوله الغربية ، والتي استخدمها استخداماً جيداً في تحقيق إضعاف الخلافة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، وأيضاً في إيجاز مهمة تغريب المجتمع التركي ، وإبعاده تدريجياً عن الإسلام . والحقيقة أن عملية الإضعاف السياسي والاقتصادي ، تزامنت مع عملية التغريب حتى غدا المجتمع التركي مجتمعًا متقدماً إلى الغرب بعد أن هجر سياساته الإسلامية وبنى علمانية أوروبية انعزل بها عن دينه ، وارتقى في أحضان الثقافة والنظم الغربية . ويسقط الخلافة العثمانية كانت خسارة المسلمين عظيمة ؛ فقد أدى غياب الخلافة في الواقع السياسي للأمة

الإسلامية إلى غياب الدولة التي تجمع شمل المسلمين في وحدة قائمة على أساس من العقيدة^(١٩).

وقد استقطبت الدراسات العثمانية جل المدارس الاستشرافية في الغرب ، فقد اهتم بها الاستشراق النصراني باعتبارها خطراً مهدداً للنصرانية في أوروبا القارة المسيحية . وقد كانت أوروبا معلق النصرانية والمدافع عنها ، بل والمهاجم بأسها في حملات صليبية وغيرها لنصرة النصرانية وفرض السيادة الدينية والسياسية على الشعوب الإسلامية ، كما ظهر هذا بوضوح في الحروب الصليبية وفي الحملات الاستعمارية الحديثة على العالم الإسلامي ، خاصة بعد الضعف الذي أصاب الخلافة العثمانية وتقسيم الغرب لأملاكها ، وبداية مرحلة استعمارية جديدة بسبب غياب الخلافة العثمانية الحامية للشرق والمدافعة عنه .

واهتم الاستشراق اليهودي كذلك بالدراسات العثمانية حيث استوطن عدد كبير من اليهود المطرودين من الأندلس في تركيا وبدأوا يخدمون الدول الأوروبية في إضعاف الخلافة العثمانية من الداخل. وقد ظهرت قوة الدور اليهودي في إسقاط السلطان عبد الحميد ، وفي الإيقاع بين العرب والأتراك وفي نشر العلمانية في تركيا^(٢٠). كما يظهر دور اليهود أيضاً في استغلال ظروف ضعف الخلافة العثمانية في التمهيد لإقامة الكيان الصهيوني في فلسطين . وقد كانت العلاقة العثمانية عقبة وسداً منيعاً أمام كل المحاولات الصهيونية لتحقيق هذا الهدف ،

كما وقفت أمام كل محاولات تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين . كما اهتم الاستشراق الشيوعى اهتماماً عظيماً بالدراسات العثمانية ، ويعتبر الاهتمام بهذه الدراسات إلى فترات قديمة سابقة على ظهور الأيديولوجية الشيوعية . فقد نشط الاستشراق الروسي منذ أن انضمت عدة بلاد أوروبية شرقية إلى الخلافة العثمانية . ويمكن أن تعد الأعمال الاستشرافية الروسية خلال هذه الفترة أعمالاً استشرافية نصرانية تحمل نفس أهداف الاستشراق الغربي النصراني ، وتسعى إلى تحليل أوضاع الخلافة في مقرها الأساسي ، وفي المناطق التي خضعت لها من أوروبا ، بل وفي العالم العربي والإسلامي ، وتعمل على مساعدة الساسة في أوروبا على إضعاف الخلافة وتقويضها ، والعمل على انهيارها . وبعد ظهور الشيوعية الجبهة الاستشراك الشيوعي إلى الدراسات العثمانية التي برع فيها بحكم العلاقات التي نشأت لعدة قرون بين بلاد أوروبية شرقية والخلافة العثمانية ، وبحكم التأثيرات العثمانية الثقافية في القارة الأوروبية ، وأيضاً بسبب العداء المستحكم بين البلاد الروسية والخلافة العثمانية التي انتزعت السيادة من الروس في العديد من المناطق ، ونشرت الإسلام في كثير من الولايات التابعة لروسيا ، والتي نشأ عنها في التاريخ المعاصر بعد سقوط الشيوعية عدة دول إسلامية مستقلة هي جمهوريات قازاقستان ، وأوزبكستان ، وطاجيكستان ، وتركمانستان ، وقرغيزيا ، وأذربيجان .

٤ - تجزئة الأمة الإسلامية :

بالقضاء على الخلافة العثمانية " رمز إقامة شرع الله وجمع شمل المسلمين " (٢١) تحت راية الإسلام ، بدأت عملية تجزئة الأمة الإسلامية إلى عدة أمم وشعوب تجمع بعضها مصالح قومية ، وتجمع البعض الآخر عرقيات وأنساب ، ويجتمع بعضها على مذاهب وأيديولوجيات ، وتفرقت الأمة الإسلامية شيئاً ، وانحصر دور الدين في جمع المسلمين على هدف واحد ، وانتصرت القوميات والشعوبيات واختلاف الأجناس والألوان واللغات ، وهي كلها عناصر تمحى الإسلام في تذويبها والقضاء عليها وإقامة أمة إسلامية واحدة على أساس من وحدة العقيدة .

ولم يتوقف دور الاستشراق عند حد العمل على تجزئة الأمة الإسلامية ولكنه عمل على إبعاد الشعوب الإسلامية - التي استقلت عن الخلافة العثمانية وأصبحت تابعة للاستعمار الغربي - عن التوحد دينياً عن طريق نشر المضاراة الغربية فيها وتحويلها بالتدريج إلى النظم الغربية في السياسة والاقتصاد والتعليم ، واستبدل قيمها الاجتماعية الإسلامية بقيم غربية . وكانت تركيماً ذاتها من أول البلاد الإسلامية التي توجهت إلى الغرب متبنية نظمه وهاجرة للنظم الإسلامية التي سارت عليها عبر قرون الخلافة ، واستسلمت تماماً لعملية فصل الدين عن الدولة ، وتحولت إلى بلد علماني خالص ، وسرعان ما أصاب هذا المد العلماني معظم بلاد المسلمين منذ سقوط الخلافة العثمانية وإلى وقتنا الحالي . وقد نتج عن هذا التبني للتفكير العلماني في مجال السياسة أن افترقت مصلحة

الأمة الإسلامية إلى عدة مصالح سياسية متضاربة، وتوزعت البلاد الإسلامية بين عدة محاور سياسية ، ولم تعد تربطها رابطة، ودخل بعضها في حروب ضد بعض بسبب اختلاف الاتمامات السياسية ، وتضارب المصالح القومية ، وظهور العديد من المحاور الإقليمية التي استقطبت العديد من البلاد العربية والإسلامية وأبعدتها عن مصلحتها الإسلامية الأساسية. وقد ظل هذا حال الشعوب الإسلامية منذ سقوط الخلافة العثمانية التي وحدت المسلمين سياسياً ، وأصبح المسلمون بعدها بدون رابطة تجمعهم وتوحد صفوهم في وجه أعدائهم ، فأصبحوا لقمة سائفة للاستعمار الذي سرعان ما تقاسم أملاك الخلافة الساقطة واستمررها وأخضعها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً لعدة محاور متناقضة إمعاناً في التجزئة ، وبعد انحسار الاستعمار وجدت الشعوب الإسلامية نفسها مرتبطة ثقافياً وفكرياً بعدها ثقافات متناقضة وسياسات متباعدة . ولم تتمكن حتى الآن من العودة إلى نظامها الإسلامي الأساسي الذي كان سبب عظمتها ورفعتها في الماضي والذي بدونه لن تقوم لها قائمة .

٥ - نشر النظم السياسية الغربية في المجتمعات الإسلامية :

قدم الاستشراق العديد من الدراسات الناقدة للنظام السياسي الإسلامي ، وكان الهدف الأساسي لهذه الدراسات تشويه النظام السياسي الإسلامي ، وإثارة الشبهات حوله ، ومحاوله إظهاره في صورة النظام المتخلف العاجز عن مواجهة قضايا العالم الحديث ، وتقديم البديل

الغري ل لهذا النظام الإسلامي ، وذلك باظهار أفضلية النظام السياسي الغربي ومناسبته للعالم الحديث ، ومحاولة فرض هذا النظام على الشعوب الإسلامية بعد إسقاط الخلافة العثمانية .

ويلاحظ أن النقد الاستشرافي للنظام السياسي في الإسلام منطلق من وجهة نظر غربية خالصة ترغب في سيادة النظام الغربي في العالم . وهو نقد خالٍ من الموضوعية العلمية ، وبعاني من عدة أخطاء منهجية من أهمها تفسير النظام السياسي في الإسلام في ضوء خلقيات استشرافية سياسية غريبة لا تصلح للحكم على نظام سياسي تابع لحضارة مختلفة ، وصادر عن دين معين هو الإسلام ، في الوقت الذي لا يرتبط فيه النظام الغربي بمصادر دينية : فهو نظام وضعى تم تطويره في ظل الفصل التام بين الدين والدولة ، وعدم الاعتراف بالدين كمصدر للفكر السياسي ، الأمر الذي أدى إلى غياب الرقيب الديني والأخلاقي على العمل السياسي ، واتجاه السياسة في الغرب إلى تحقيق المصلحة القومية على حساب الدين والأخلاق ، واعتبار الغاية النهائية مبررة لكل الوسائل المتخذة في سبيل تحقيق هذه المصلحة .

وفي ضوء هذه الخلقيات السياسية الغربية يخطئ المستشرقون حين يعكمون على السياسة في الإسلام من وجهة نظر غربية واستنادا إلى مبادئ مرفوضة إسلامياً ، ومن أهمها مبدأ فصل الدين عن الدولة^(٢٢) . والحكم على نجاح النظام الإسلامي أو فشله يجب أن يتم من داخل النظام السياسي في الإسلام ، وفي ضوء تطوره ومسيرته في التاريخ

الإسلامي ، وفي ضوء مدى قربه أو بعده من مصادره الدينية الأساسية ، وأيضاً في ضوء مدى التزامه بالدين والأخلاق عند المسلمين .

وقد تأثر المستشرقون بفكرة الديموقراطية الغربية واعتبروها المقاييس الناقد والمعيار الذي تنتقد في ضوئه كل النظم السياسية الأخرى ومن بينها النظام الإسلامي . وهنا يظهر خطأ استشرافى آخر في عملية المفاضلة بين الديموقراطية الغربية ونظام الشورى في الإسلام ، وتفضيل الديموقراطية على الشورى ^(٢٢) . والمفاضلة بين النظائرتين وترجيح الديموقراطية عملية لا تخضع لمقاييس نقدية موضوعية ولا تأخذ في الاعتبار مسيرة كل من الشورى والديمقراطية في التاريخ ، وإنما هي تنطلق من مبدأ السيادة الغربية ، والرغبة في نشر قيم الغرب في مجال السياسة والحكم دون النظر في إيجابيات نظم الحكم الأخرى وبخاصة نظام الحكم في الإسلام . وينطلق الاستشراف في نقده للحكم في الإسلام من الشبهة العامة التي تقول بأن الإسلام لا يملك فكراً سياسياً ، وأن النظرية السياسية في الإسلام ليست أصلية وإنما مأخوذة من نظم أخرى أجنبية . والهدف من إثارة هذه الشبهة العامة تشويه الدين الإسلامي ، ونسبة ما نشأ عنه من نظم ونظريات إلى أدبيان وحضارات أخرى ، ورد منجزات الإسلام في مجال السياسة والحكم إلى مصادر أجنبية . وهذه الشبهة العامة لا تتفق مع الواقع الحال في الدين الإسلامي الذي طور نظاماً للحكم ليس مسبوقاً وهو نظام الخلافة ، وهي شبهة تتناقض ومسلمة التاریخ الإسلامي الذي اعتمد الخلافة كنظام للحكم استمر منذ

بداية الخلافة الراشدة وحتى سقوط الخلافة العثمانية . فهى تمثل أطول نظام للحكم فى تاريخ العالم ، وقد ظل نظاما فعالا وقويا ، ولم توضع له نهاية إلا على يد الغرب الذى تأمر بإسقاطه ولم ينجح فى ذلك إلا مؤخرا بعد أن أصاب الوهن والضعف الأمة الإسلامية فى تاريخها الحديث .

وفى ظل الخلافة أقام المسلمون دولة ساست أمور الدين والدنيا بنجاح منقطع النظير . وهى دولة اختللت فى مبناتها عن كل الدول التى سبقتها كما اختلفت عن النظام السياسى الغرى ونظام الدولة الذى تخض عنه . ومن أهم ما ميز الدولة الإسلامية عن غيرها فى الشرق والغرب قيامها على وحدة العقيدة فى الوقت الذى ركزت فيه النظريات السياسية الأخرى على وحدة الشعب ، أو وحدة الإقليم ، أو وحدة العرق ، أو الوحدة القومية بشكل عام . ولقد نجحت النظرية السياسية فى الإسلام فى جعل الكتاب والسنّة مرجعًا للحكم ، وقضت على كل الفوارق الإنسانية التى تفاخر بها البشر على بعضهم البعض من عناصر قومية أو شعوبية أو لونية أو لسانية ^(٢٤) . وكانت وظيفة الخلافة " حراسة الدين وسياسة الدنيا بهذا الدين" ^(٢٥) ، ولم تكن حراسة لقومية ، أو شعوبية ، أو مصلحة إقليمية أو غير ذلك من المصالح التى حرصت عليها نظم الحكم الأخرى . ومن فضائل النظرية السياسية فى الإسلام الموازنة بين مصلحة الدين ومصلحة الدنيا ، والحرص على تحقيق سعادة الإنسان فى الدنيا والدين والتوفيق بين متطلبات الإنسان الروحية

واللادية . ومن فضائلها أيضًا الاستناد إلى القاعدة الأخلاقية في الحكم: إذ تركز النظرية السياسية في الإسلام على تحقيق الأعمال السياسية النافعة والمؤدية إلى تحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والدين ، وجعلت من الدين والأخلاق رقيبًا على العمل السياسي . والسيادة في الحكم تتبع من ارتباط الحكم بالشريعة الإسلامية وتطبيقه لها ، بينما تركت السيادة في الغرب إما في يد الشعب باسم الديموقراطية ، أو بيد الحاكم أو رئيس الدولة باسم الدكتاتورية ، وكلاهما يسهل وقوعه في الخطأ لارتباطه بمقاييس دنيوية وضعية ولا جهادات إنسانية تحتمل الصواب والخطأ ، كما هو واقع وملاحظ في أمر الديموقراطية والدكتatorية في تاريخ العالم قديمًا وحديثًا .

الفصل الثالث

الآثار الاجتماعية للفكر الاستشرافي في المجتمع الإسلامي

للاستشراف أهدافه الاجتماعية الواضحة والتي من أجلها وجد المستشركون جانبا لا يأس به من بحوثهم لدراسة المجتمعات الإسلامية ، والتعرف على أوضاعها المختلفة، ووضع الخطط لإحداث التغييرات الاجتماعية من خلال معرفة علمية واعية بطبيعة المجتمعات الإسلامية الحديثة من حيث بنيتها ، ومواطن الضعف فيها بغية تغيير المجتمع الإسلامي ، وتحويله بالتدريج إلى مجتمع غربي يأخذ بالنظم الاجتماعية الغربية ، ويتبني قيم الغرب الاجتماعية .

لقد تركت جهود الأعمال الاستشرافية في المجال الاجتماعي حول وضع الخطط الساعية إلى عزل الإنسان المسلم عن مجتمعه الإسلامي ، وإبعاده عن عاداته وتقاليده الاجتماعية الإسلامية ، ووضع أسس اجتماعية جديدة للحياة الإسلامية . وكما هي العادة في الكتابات الاستشرافية تبدأ عملية تغيير المجتمع الإسلامي من خلال توجيه السهام الاستشرافية إلى النظام الاجتماعي في الإسلام ، فتعمل على تشكيك المسلمين في نظمهم الاجتماعية ، وإثارة الشبهات حول القيم الاجتماعية في الإسلام ، وتشويه صورة المجتمع المسلم ، ثم تقديم المجتمع الغربي في صورة مثالبة مغذجة لا تتفق مع الواقع الاجتماعي للحياة الغربية ،

وعن طريق المقالة في تصوير محسن المجتمع الغربي ، وأفضليته على المجتمع الشرقي عامة والمسلم خاصة ، وتصوير المجتمع الشرقي بكل أشكال التخلف والجمود ، ورد هذا التخلف والجمود إلى قيم الإسلام ثابتة الجامدة غير المتغيرة من وجهة نظر الاستشراق^(٣٦) ، وفي نفس الوقت تمجيد الحريات الغربية واعتبارها أساساً للتقدم في الغرب ، والتعتيم على مساوى الحياة الاجتماعية في الغرب : حيث إن وسائل الإعلام في الغرب تقدم الغرب لأبناء الشرق في صورة خيالية غاذجية خالية من مساوى المجتمع ومظالمه المتعددة ومحاسده لإحداث الاتبهار الضروري لدى الإنسان المسلم وذلك لجذبه إلى الحياة الغربية والعمل على إبعاده عن قيم المجتمع المسلم ، ودفعه إلى تبني قيم المجتمع الغربي .

وقد أثرت هذه الصورة المعطاة للحياة الغربية وللمجتمع الغربي في عقول ووجدان العديد من المسلمين الذين وقعوا تحت التأثير الاستشاري والفكر الغربي الوافد . وبدأت عملية التخطيط لإقامة مجتمعات إسلامية تقوم على أساس من الفكر الغربي ومبادئ الحضارة الغربية وأسس المجتمع الغربي . ونظراً لاختلاف الفكر الغربي وتعدد الجبهات الاستشارية فقد جاءت التأثيرات الاجتماعية في حياة المسلمين متناقضة ومتناقضة بشكل هدد الحياة الإسلامية ووحدتها تهديداً عظيماً . فقد انقسمت المجتمعات الإسلامية في العصر الحالي إلى نوعين متناقضين من المجتمعات : الأول تبني قيم المجتمع الغربي الرأسمالي ، أو تلك التي اجذبت إلى النظام الرأسمالي وأخذت بقيميه الاجتماعية والاقتصادية . والنوع الثاني من المجتمعات الإسلامية وقع تحت تأثير

الشيوعية وانتهى إلى الأخذ بنظم الشيوعية في المجال الاقتصادي ، الأمر الذي أدى إلى إحداث تغييرات اجتماعية تتناسب والقيم الشيوعية . ويضاف إلى هذين النوعين مجتمعات إسلامية اختلطت فيها القيم والمذاهب الاجتماعية ، فتم خلق مجتمعات لاهوية لها ، فلا هي غريبة ولا هي شرقية ، ولا هي احتفظت بقيم المجتمع الإسلامي .

ويجب أن نذكر أن المستشرقين توزعوا بطبيعة الحال بين النظام الرأسمالي والنظام الشيوعي . وسعى كل فريق إلى كسب المجتمعات الإسلامية إلى نظامه عن طريق الدراسة العلمية للأوضاع الاجتماعية في البلاد الإسلامية ، ووضع الخطط العلمية المؤدية إلى تغيير البنية الاجتماعية وفقاً للرؤية الاستشراقية الغربية الرأسمالية أو الشيوعية أو الاشتراكية . وقد استفاد الساسة في الغرب من هذه التحليلات الاجتماعية للمجتمعات الإسلامية والتي مكنتهـم من فهم المجتمع الإسلامي ، والتعرف على أوضاعه ومشاكله ، ووضع الخطط لتجيـره حسب المصالح السياسية والرؤى السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد الأوروبية المختلفة .

وما لا شك فيهـ أن وقـعـ الـبلـادـ الإـسـلـامـيـةـ تـحـتـ الـاستـعـمـارـ الـأـرـدـوـيـيـ لـفـتـرـةـ طـوـبـلـةـ منـ الزـمـنـ قدـ مـكـنـ الـاستـعـمـارـ منـ إـحـدـاـتـ التـغـيـيرـاتـ الـاجـتـمـاعـيـةـ الـمـطـلـوـيـةـ ، وـتـنـفـيـذـ الـخـطـطـ الـاسـتـشـرـاقـيـةـ فـيـ هـذـاـ الـمـصـوـصـ . فـأـقـيـمـتـ مجـتـمـعـاتـ إـسـلـامـيـةـ تـابـعـةـ لـجـمـعـتـ الـمـسـتـعـمـرـ وـحـضـارـتـهـ وـثـقـافـتـهـ وـعـادـاتـهـ وـتـقـالـيدـهـ وـقـيمـهـ . وـقـدـ قـامـ الـمـسـتـشـرـقـ بـدـورـينـ فـيـ هـذـاـ الـعـمـلـ التـفـريـبيـ : الدـورـ الـأـوـلـ هـوـ دـورـ التـخـطـيـطـ الـفـكـرـيـ لـعـمـلـيـةـ التـغـيـيرـ .

والدور الثاني دور تنفيذى ساهم فيه المستشرقون الذين عملوا مع المستعمر كخبراء ، أو قادة عسكريين ، أو ساسة فجمعوا بين الاهتمامات والدراسات العلمية للمجتمعات الإسلامية وبين تنفيذ الخطط الموضعية لتغيير المجتمعات الإسلامية .

١ - المخلفية الاجتماعية للمستشرقين وأثرها في فهم الإسلام الاجتماعي في الإسلام :

يندرج الفكر الاجتماعي عند المستشرقين فيما يخص المجتمعات الإسلامية تحت نوعين من الدوافع : الأول دافع سيادى مرتبط بالرغبة فى نشر الثقافة الفربية للمستشرق ، وبالتالي تغيير المجتمعات الإسلامية ، وتحويلها بالتدريج إلى مجتمعات تتبنى قيم المجتمع الفربى وثقافته . أما الدافع الثانى المعرك للدراسات الاجتماعية الاستشرافية فهو دافع فكرى مرتبط بالخلفية الثقافية للمستشرق والتى تدفعه إلى رؤية المجتمعات الإسلامية من زاوية غربية خالصة ، وإسقاط الرؤى الاجتماعية السائدة فى الغرب على فهم ودراسة المجتمع المسلم .

وتأثير المخلفية الاجتماعية للمستشرق عظيم فى رؤيته للمجتمع المسلم . خاصة وأن عدداً كبيراً من المستشرقين درسوا المجتمع الإسلامي دون أن يقوموا بزيارته ، والحياة بين أهله ، والتعرف - على الطبيعة - على قيمه وعاداته وتقاليده ، فأدت دراساتهم قاصرة ونظيرية وخالية فى معظم الأحوال ، وغير مسايرة لواقع المجتمعات الإسلامية . فالعديد من الصور الاجتماعية التى قدمها الاستشراف للمجتمع الإسلامي مأخوذة

من مصادر قديمة ولعصور زمنية ماضية ، كثثير منها متأثر برؤى غير علمية مستمدة من مصادر أدبية وحكايات شعبية لا تعطى صورة صحيحة للمجتمع المسلم في زمانها . وهناك مستشرقون عاشوا لفترة زمنية في أحد المجتمعات الإسلامية وحاولوا تصوير المجتمع كما رأوه ، ولكنهم فشلوا في ذلك لأسباب عديدة ، منها عدم التعمق في فهم المجتمع لصورية ذلك بسبب الم حاجز النفيسي واللغوية وعدم القدرة على الوصول إلى روح المجتمع المسلم ، فأدت دراساتهم سطحية تعالج موضوعات ظاهرية دون التوغل في فهم المجتمع . وعزل بعض المستشرقين في دراساتهم الاجتماعية فصل المجتمع عن الدين وحاولوا فهمه من خلال رؤية غربية تفصل الدين عن الدين فأدت أعمالهم وكأنها وصف غربي لمجتمع إسلامي تحمل طابع التزييف والتحريف لطبيعة المجتمع المسلم . وبالإضافة إلى فرض الرؤية الاجتماعية الغربية أصبب بعض المستشرقين بدأه التبعق الفكرى والاجتماعى فلم يجدوا في المجتمع المسلم إلا السلبيات من وجهة نظرهم فأبرزواها وقدموا المجتمع المسلم من خلالها ، وهو من باب التشويه المغرض المتآثر بأحقاد نفسية تجاه المجتمع المدروس تظهره في أسوأ صورة ممكنة وتتنفس عنه كل حسناته وفضائله^(٢٧) .

وتأتي الأحكام الاستشرافية على المجتمعات الإسلامية متاثرة بالرؤية الاجتماعية الغربية وهي رؤية مخالفة للرؤية الإسلامية من حيث أنها تنظر إلى المجتمع مستقلاً عن الدين ، كما أن علاقاتها بالأخلاق علاقة نسبية متاثرة باختلاف المدارس الغربية حول مفهوم الأخلاق ودوره

في البناء الاجتماعي في حين أن النظام الاجتماعي في الإسلام نظام نابع من الدين ومتلزم بالأخلاقيات الاجتماعية التي يقرها الدين نفسه . فالأسرة مثلاً كوحدة اجتماعية تقوم في الإسلام على أسس دينية وأخلاقية، وكذلك المبادئ المهيمنة في العلاقات الأسرية وفي العلاقات الاجتماعية عامة مرتبطة بالدين والأخلاق تستمد منها القيم الاجتماعية المنظمة للحياة الإنسانية في المجتمع .

ويتأثر المستشرق أيضًا بمفهوم الحرية الاجتماعية السائد في الغرب والتفصل عن الدين والأخلاق ، والمرتبط بقيم وضعية نسبة لا تمنع من وقوع الضرر بالآخرين وهو التبادل الاجتماعي الوحيد لهذه الحرية الاجتماعية التي أدت إلى تدمير العلاقات الإنسانية في المجتمع الغربي^(٢٨) وقوضت نظام الأسرة وأحالته إلى نظام اجتماعي بالـ، وأفضنته لفهم الحرية فاختلطت القيم داخل الأسرة ، وهجر الأبناء أسرهم في سن التكوان ، أو عاشوا داخل هذه الأسر يمارسون حرية لهم المطلقة دون قيود ودون اعتراف بسلطة للأب والأم .

في ظل هذه الخلفية الاجتماعية درس المستشرقون المجتمعات الإسلامية ، وكونوا رؤية استشراقية غريبة عنها ، وتصوروا إمكانية سبادة النموذج الاجتماعي الغربي وفرضه فرضًا على المسلمين . وبعتبر المجال الاجتماعي من أخطر المجالات التي اشتغل بها المستشرقون هادفين إلى تغيير المجتمعات الإسلامية من الداخل ، وقد مكثهم الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي من إحداث التأثير الاجتماعي المطلوب ، وهو تأثير سلبي خطير شوه المجتمعات الإسلامية، وأبعدها

عن شكلها الاجتماعي الإسلامي وجعلها تابعة وخاضعة لنماذج اجتماعية غربية ولقيم وعادات وتقاليد مستوردة .

٢ - الآثار الاجتماعية السلبية للفكر الاستشرافي :

لقد نتج عن الفكر الاستشرافي في المجال الاجتماعي عدة تأثيرات سلبية كان لها دورها في تغيير صورة المجتمع المسلم في العصر الحديث.

أ- تغريب المجتمع المسلم من خلال التأثير على قيم الأسرة المسلمة:

لقد بدأت عملية التغريب بالنقد الاستشرافي الشديد لحياة المجتمع المسلم وقيمه ، وإثارة العديد من الشبهات الاستشرافية حول الحياة الإسلامية ، واتهام الدين الإسلامي بأنه سبب تخلف المسلمين الاجتماعي في العصر الحديث ، وتقديم المجتمع الغربي كبديل للمسلمين ، والربط بين الحياة الغربية والتقدم الاجتماعي ، واعتبار القيم الاجتماعية الإسلامية قيمًا بالية لاتصلح للعصر الحديث ، والتأكيد على ضرورة استبدالها بالقيم الاجتماعية الغربية . ونظرًا لأن الأسرة هي أساس المجتمع المسلم فقد عاجلت الدراسات الاستشرافية الاجتماعية الأسرة ، وانتقدت القيم المهيمنة في العلاقات الأسرية ، وهاجمت السلطة التي يتمتع بها الأب داخل الأسرة واعتبرتها من أسباب تخلف الأسرة المسلمة، وطالبت بإطلاق الحرريات داخل الأسرة ، ونادت بتغيير القيم الاجتماعية المهيمنة في الأسرة المسلمة . والهدف الحقيقي للدراسات الاستشرافية الاجتماعية تغيير القيم الأسرية، وتفكيك العلاقات

الأسرية، واتخاذ النموذج الفربى للحياة الاجتماعية داخل الأسرة وخارجها . وهو نموذج خطير وضار بالمجتمع المسلم وقد أصاب المجتمع الفربى بالمفاسد الاجتماعية والأمراض الاجتماعية التى ترتب على تدهور مكانة الأسرة فى الغرب.

ونرى ضرورة التنبئ إلى خطورة تبنى هذا النموذج الأسرى فى الغرب والذى ضاعت فيه القيم ، واختلطت الحقوق والواجبات استنادا إلى مبدأ الحرية الشخصية لأفراد الأسرة . وقد تسببت هذه الحرية فى ضياع الشخصية الأسرية ، والتخلص من قيود الأسرة التى تثقلت فى الغرب فى سلطة الأب والأم داخل الأسرة ، وتحقيق ما يسمى بالاستقلال الشخصى لعضو الأسرة داخل أسرته وحريته فى ترك الأسرة وهجرها تحقيقا لاستقلاله وحريرته ، وقد انطبق هذا على الجميع ، فالآب يترك أسرته وكذلك الأم تحقيقا لرغبات شخصية خالصة سميت بعribat شخصية ، ويترك الأبناء والبنات أسرهم فى وقت مبكر من حياتهم قبل أن يكتمل نموهم النفسي والاجتماعي ، وقبل أن يحقق كل منهم نصيبيه الكامل من التربية والتعليم والأمان الاجتماعى والاقتصادى ، وقبل أن يتلقى ما يكفيه فى حياته من التعاليم الدينية الأخلاقية فى حالة تمسك الأسرة أصلاً بدين من الأديان أو بنظام أخلاقي معين .

ويجب التنبئ أيضًا إلى أن من أهم مساوى هذا النموذج الأسرى الفربى الذى يراد تصديره إلى المجتمع الإسلامى ضياع قيمة الزواج الاجتماعية كعامل أساسى فى بناء الأسرة السليمة اجتماعيًّا . فقد

تدهور النظام الأسرى إلى المد الذى أصبح هدف الزواج كمؤسسة اجتماعية إشباع الرغبات الجنسية للزوجين ، وعدم الاكتتراث بتكون أسرة بالمعنى الاجتماعى المعروف : إذ يلاحظ أن كثيراً من الزيجات الحديثة فى الغرب تقوم على شرط أساسى وهو عدم الإنجاب . وينتج عن الإخلال بهذا الشرط هجر الأسرة أو فرض الإجهاض كوسيلة للتخلص من الجنين . والحقيقة أن الزواج تدهور فى الغرب إلى أن أصبح معبراً عن مجرد رغبة شخصين فى الحياة معًا بدون إنجاب ، ورعاها لفترة زمنية محددة تنتهى بانتهاء الدافع إلى هذا الرباط غير المقدس ألا وهو إشباع الرغبة الجنسية . وهى رغبة يمكن إشباعها بسهولة خارج إطار الأسرة مما يجعل نظام الأسرة لا قيمة له على الإطلاق حتى فى مسألة الإشباع الجنسى التى يمكن تحقيقها بعيداً عن القيود الأسرية ، وما يتربى على نظام الأسرة من التزامات وواجبات وعلاقات تقاد تكون مفروضة فرضاً.

ومن الواجب الإشارة إلى أن بعض هذه القيم الفريبية انتقلت إلى الأسرة المسلمة بتأثير من الفكر الاستشرافي . ونذكر على سبيل المثال التفكك الذى بدأت تعانى منه الأسرة المسلمة خاصة فى مجال العلاقات الأسرية حيث تعمد بعض الأسر المسلمة إلى إطلاق الحريات للأبناء ، والبنات داخل الأسرة ، والسماح لهم بالحريات الشخصية دون رقابة من الأب والأم . ومن بين هذه الحريات السماح لهم بالتأخر خارج المنزل ، وباختيار الأصدقاء ، والصديقات دون رقابة من الأسرة ، والاشتراك فى الحفلات وغيرها من المناسبات غير الإسلامية ، والاختلاط بالجنس الآخر ، والدخول فى علاقات مع الجنس الآخر ، واختيار الأزياء غير المناسبة ،

والاعتماد على وسائل غريبة في التربية وفي تنشئة الأبناء والبنات داخل الأسرة . ويظهر هذا التأثير أيضاً في علاقة الأب بالأم في حياة بعض الأسر المسلمة ، حيث تدهورت سلطة الأب داخل الأسرة ، وافتقد الرجال صفة القوامة ، وسمحوا لزوجاتهم بالعمل والإتفاق على الأسرة أو المشاركة في نفقات الأسرة ، وتخلوا بذلك عن أول وأهم واجباتهم الأسرية . كما نظمت حياة الأسرة المسلمة في نفس الإطار الذي سارت عليه الأسرة الغربية: حيث يصر بعض الأزواج على عدم الانجذاب ، وفي حالة الانجذاب يتم تحديد النسل ، ويعمل الإهانة في تربية الأبناء والبنات بسبب عمل الزوجة ومارستها الحرية في الخروج من المنزل وبدون إذن الزوج في معظم الأحوال ، وترك الأبناء والبنات في رعاية مربية أو خادمة جاهلة أو أجنبية تترك أثراً كبيراً في حياة الأبناء والبنات وهو أثر سلبي بكل تأكيد . وتصر بعض الأسر المسلمة على عدم الالتزام بواجبات الدين وفرضه : من ترك للصلة والصوم ، وإهمال لبقبة الفروض الدينية ، وعدم الالتزام بالمبادئ الأخلاقية ، وبالتالي العجز عن تربية الأبناء تربية دينية وأخلاقية لائقة ، وتميل العديد من الأسر المسلمة إلى عدم الالتزام بالحجاب أو بالزي الإسلامي اللائق الذي يحفظ للمرأة وقارها واحترامها وعفتها . هذه الظواهر الاجتماعية وغيرها لا شك في أنها بدأت تنتشر في المجتمعات الإسلامية وبصورة مهددة لنظام الأسرة في الإسلام ، وهي ظواهر اجتماعية سلبية لابد من تقويمها ومنع انتشارها بكل الوسائل الشرعية والأخلاقية الممكنة ومن خلال التوعية الإسلامية الحريصة على إعادة الاحترام والتقدير إلى الأسرة المسلمة .

ب - الهجوم الاستشرافي على المرأة المسلمة :

وامتداداً للهجوم الاستشرافي على نظام الأسرة في الإسلام ركزت الأعمال الاستشرافية على دراسة وضع المرأة المسلمة داخل الأسرة وخارجها ، فاتهموا المرأة المسلمة بأنها أسيرة الرجل وأمته لا تتمتع بأي حقوق أو حريات ، وليست لها شخصية مستقلة عن الرجل ، واتهموها في عقلها بأنها في وضع عقلى مختلف فهى جاهلة غير متعلمة ، وهى عضو عاطل داخل المجتمع المسلم طالما أنها لا تتمتع بحقوق العمل والأنشطة المتاحة للمرأة في الغرب .

ويركز النقد الاستشرافي على ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة ، ومحض الدراسات الاستشرافية المرأة المسلمة على الشورى والتمرد على وضعها داخل المجتمع المسلم ، والمطالبة بحقوقها " الضانعة " والتشبه بالمرأة الغربية ، فتصبح عضواً كاملاً في المجتمع له حقوق الرجل وعليه واجباته . وقد تأثر بهذه الدعوة الاستشرافية عدد من المفكرين أمثال سلامة موسى وقاسم أمين وغيرهم من أصحاب الدعوة إلى حرية المرأة . وبدأت في الظهور شخصيات نسائية مسلمة تطالب بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل في الحقوق . وتكونت الحركات النسائية التي تدافع عن مبدأ المساواة تأثراً بالفكرة الاستشرافية التي تسعى إلى تغريب المرأة المسلمة ، ومحو شخصيتها الإسلامية ، ودفعها إلى التمسك والمطالبة بنفس وضع المرأة الغربية .

وكالعادة فالاستشراق هنا واقع تحت تأثير وضع المرأة الغربية ، ويرى أنها نموذج يجب أن يحتذى به ، وأن ما حققته من مساواة وحقوق يجب أن يتسع ليشمل المرأة المسلمة والمرأة الشرقية عامة . ولذلك فالأحكام الاستشرافية الخاصة بوضع المرأة المسلمة أحكام متاثرة بالخلفية الاجتماعية للمستشرقين الذين يسقطون النظام الاجتماعي الغربي ووضع المرأة الغربية على وضع المرأة المسلمة فيطالبون بالمساواة بين الجنسين ، وبالحرية المطلقة للمرأة المسلمة . ومنحها كل الحريات الممنوعة للمرأة الغربية دون مراعاة للاختلاف الجوهرى بين طبيعة النظام الاجتماعى فى الغرب عنه فى الشرق، واختلاف وضع المرأة الغربية عن وضع المرأة الشرقية ومكانتها فى المجتمع الشرقي عامة والإسلامى خاصة .

وبالإضافة إلى الواقع تحت تأثير الخلفية الاجتماعية للبيئة الغربية يسعى الاستشراق إلى تقويض وضع المرأة المسلمة داخل الأسرة، والعمل على تفكيك نظام الأسرة فى الإسلام : من خلال حرث المرأة المسلمة على التمرد على هذا النظام والخروج عليه باسم الحرية ، وتصوير وضع المرأة المسلمة تصویراً مزيفاً لا يعكس الحقيقة ، وبأخذ بعض الظواهر الخارجيه، ويعقد مقابلة ظالمة وتعسفية بين وضع المرأة الغربية بعرياتها المتعددة ووضع المرأة المسلمة بتقيودها المكبلة بها من وجهة النظر الاستشرافية . فيظهر للمرأة المسلمة أنها فى وضع أدنى من المرأة الغربية فتطالب بحقوق المرأة الغربية وبالمساواة بالرجل وبالحريات الأخرى التى تعتقد خطأ أنها محرومة منها . ولاشك فى أن العديد من النساء

السلمات وقعن تحت تأثير هذه المقابلات التي عقدها الاستشراق بين المرأة الغربية وال المسلمة. بل نجد أن التأثير قد امتد إلى الرجال المسلمين الذين يطالبون للنساء بحقوق المرأة الغربية عن جهل بواقع المرأة الغربية التعيس ، وعدم تعمق وقلة فهم لطبيعة الحريات المنوحة لها ، وعدم إدراك للمفاسد الاجتماعية والأخلاقية المترتبة والتي أدت إلى حدوث عكس ما هو مطلوب ألا وهو فقدان المرأة لكرامتها وشخصيتها بسبب حريات مشبوهة أدت إلى وقوع رذائل معمرة . وفيما يلى نبرر مساوى الدعوة الاستشرافية إلى تحرير المرأة المسلمة من خلال مناقشة موضوعين أساسين الأول : وضع المرأة في الإسلام و مقابلته بوضع المرأة في الغرب، وبيان معasan وضع المرأة المسلمة ومساوي وضع المرأة الغربية . والثانى مناقشة قضية هامة تشير العديد من الشهادات حول وضع المرأة المسلمة وهى مسألة تعدد الزوجات التي يركز عليها الاستشراق تركيزاً شديداً ، محاولين شرح الموقف الإسلامي من التعدد ، وبيان أسباب التعدد والضرورات التي تدعوه إلى ذلك .

أولاً : المقابلة بين وضع المرأة المسلمة والمرأة الغربية وبيان محاسن وضع المرأة المسلمة

بحضني الاستشراق حين ينظر إلى المرأة في الإسلام في ضوء المرأة في الغرب ، وفي ظل أوضاع غريبة غير مقبولة إسلامياً . فالمرأة الغربية حرية بالمعنى الغربي للحرية، وهو معنى مرفوض في المجتمع الإسلامي : إذ أنه يعني خروج المرأة المسلمة على الحدود الدينية والأخلاقية للمجتمع المسلم . فالحرية الغربية فرضت على المرأة أوضاعاً تتنافى مع طبيعتها

كاميراً . فقد تعمت المرأة بحريمة ظاهرية فقدت في مقابلها حقها كأنثى في الرعاية والكفالات والقوامة ، ونالت استقلالها عن الرجل فقدت مكانها الطبيعي داخل الأسرة ، وفقدت الحماية الاجتماعية والاقتصادية ، والأمان الاجتماعي والنفسى والاقتصادى الذى يكفله نظام الأسرة في مقابل حرية وهيبة واستقلال مفقود . وكل هذا قد تم للمرأة الغربية في إطار من نظام للقيم يسمح للمرأة بالحصول على هذه الحريات دون أن يوفر لها الحماية أو يدفع عنها الأضرار الناجمة عن هذه الحريات . فالمرأة الغربية أصبحت وحيدة بدون حماية تمارس حريتها في ظل مخاوف متعددة تقاد تطبع بكرامتها وتدفع بها إلى الهاوية بدون أسرة وبدون أبناء وبدون رعاية رسمية أو غير رسمية .

والنظرية الاستشرافية إلى المرأة المسلمة نظرة سطحية تأخذ ببعض المظاهر الخارجية لوضع المرأة دون التعمق في فهم وضع المرأة داخل إطار النظام الاجتماعي ، وبنوع من الشمولية التي تؤدي إلى حسن الفهم ، وبعيداً عن عملية عزل بعض الجزئيات عن المفهوم الكلى أو النظرية الكلية للمرأة في المجتمع المسلم . فالاستشرق يعزل بعض العناصر عن الرؤية الكلية ، ويحكم على وضع المرأة المسلمة من خلال هذه العناصر المعزولة مثل الحجاب ، وعدم الاختلاط ، وتعدد الزوجات ... إلى غير ذلك من المظاهر التي تبدو سلبية في إطار النظرية الجزئية السريعة المفصلة عن الرؤية الشمولية لوضع المرأة في الإسلام ، وفي مقابل ذلك تأتي النظرية الاستشرافية للمرأة الغربية في ضوء عناصر جزئية تبدو

ابجاذبة في شكلها المفصل عن الإطار العام والرؤية الشمولية لوضع المرأة الغربية . والنظرتان مخضستان لقياً مهما على أساس من مظاهر خارجية تأخذ بالظاهري ولا تعمق لتحصل على فهم سليم لأوضاع المرأة المسلمة .

والحقيقة أن المرأة المسلمة تتتفوق في وضعها على المرأة الغربية وعلى كل المستويات : فالمرأة تتمتع بوضع إنساني طيب وكرم في ظل الإسلام الذي كرمها في كل وظائفها في المجتمع كأم وزوجة وأخت وأبنة، وقد ضمن لها الإسلام حقوقها كاملة في شئون الزواج والطلاق والميراث ، وحمتها الشريعة الإسلامية من خلال الأحكام والتشريعات التي تضمن لها حقوقها مع الرجل على كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والعاطفية ، وهذه الحقوق مكفولة بواسطة الشريعة وليس متروكة طرية الرجل وإرادته^(٢٩) .

والمرأة في الإسلام إنسانة مستقلة ومسئولة مسئولة دينية ومدنية كاملة ، وقد اعترف الإسلام لها بكرامتها الكاملة وبشخصيتها المستقلة عن الرجل ، وقد قرن بينها وبين الرجل في مواضع عديدة وعاملها على نفس المستوى مع الرجل في الأمور الدينية والدنيوية .

وقد عاملها الإسلام المعاملة الشرعية المستقلة كإنسان مسئول دينياً وأخلاقياً وكثيراً ما خاطبها القرآن خطاباً مباشراً دون أن يعتبرها تابعة للرجل في مسئoliاتها ، وفي الوقت الذي منحت فيه حق التملك كلفت الرجل بحمايتها ورعايتها وقوامتها وتحمل مسئoliتها .

وهذا ليس من باب فرض السيادة للرجل على المرأة ، ولكن اعتراضنا بأمور النطرة وما يفرضه العقل السليم في شأن المرأة بطبعتها الضعيفة وقدراتها الجسمية المحدودة ، ومحدودية نشاطها ، والذى تفرضه ظروفها الخاصة وضرورة الحفاظ على كرامتها ، وصيانتها شخصيتها داخل الأسرة والمجتمع . لقد حرص الإسلام على شرف المرأة وطهارتها وعفتها وعدم ضياع شخصيتها فى ظل الرجل من خلال التنظيم الدقيق لعلاقة المرأة بالآخرين داخل الأسرة وخارجها ، وقد أوصى القرآن الكريم والحديث النبوى بكل ما يحفظ للمرأة مكانتها وقيمتها فى المجتمع الإسلامي .

أما ما يدعى الغرب من حرية شخصية للمرأة فهو لا يتناسب مع طبيعة المجتمع المسلم ، ولا يصح أن تقاس أوضاع المرأة المسلمة على أساس أجنبية يعتبرها الغرب صالحة للمرأة الغربية . فالمجتمع الغربى له قيم خاصة التى سمعت للمرأة بالاختلاط بالرجل فى العمل وفي الحياة عامة ، وجعلت العلاقات بين الرجل والمرأة علاقات مفتوحة تتم على أساس من الحرية الشخصية للرجل والمرأة وفي ظل نظام منفك للأسرة يشجع على العلاقات الخاصة ^(٢٠) ، ويجبر المرأة على الخروج على طبيعتها والتعامل مع الرجل ندا لند دون الاعتراف بالفارق الأساسية بين طبيعة كل من الرجل والمرأة والتى اعترف بها الإسلام فتحمل الرجل مسئولية المرأة أما زوجة وأختاً وأبنته ، وجعل الرجال قوامين على النساء ، واعتبر المرأة مسئولة عن بيتها وتربية أولادها ، كما منحها حق العمل فى الأعمال التى تناسب طبيعتها ولا تتنافى مع كرامتها . وحدد علاقة الرجل بالمرأة داخل نطاق الأسرة حفاظاً لكرامة المرأة وضماناً لحقوقها ،

وحتى في حالة عمل المرأة لم يبلغ الإسلام مسؤولية القرامة على الرجل ، وهو أمر ليس له وجوب في الغرب ، فالرجل ليس مسؤولاً عن المرأة فالمرأة لها عملها والرجل لها عمله ، وداخل الأسرة يتحمل الرجل والمرأة تكاليف المعيشة وتربية الأبناء . فإعطاؤه حق العمل للمرأة سلب منها حقوقها المادية على الرجل، ورفع عن الرجل المسؤولية المالية تجاهها.

أما القيود التي يتحدث عنها المستشركون فهي ليست قيوداً ولكنها ضمانات للحفاظ على كرامة المرأة وسلامة المجتمع ، وسبادة الأخلاق والبعد عن المفاسد الأخلاقية والاجتماعية المدمرة للمجتمع في النهاية^(٣١) . فالحجاب وعدم الاختلاط والقيود الخاصة بطبعية عمل المرأة كلها لا تهدف إلى النيل من حرية المرأة وحقوقها وإعطاؤه الرجال سبادة على النساء ، كما يدعى المستشركون ، ولكنها ضوابط أخلاقية لحماية المرأة والمجتمع ، خاصة وأن الغرب - وبعض المجتمعات الإسلامية المتأثرة به - قد عرض المرأة للعديد من المغاطر الاجتماعية بسبب حرية اللباس ، والاختلاط ، وإساءة استخدام المرأة في أعمال ووظائف مهينة لها ولكرامتها مما ساعد على انتشار الفساد في المجتمع من خلال السفور ، وارتداء المرأة للأزياء الخلابة المشيرة لفتنة الرجل ، وعمل المرأة في السينما والمسرح ، وفي وسائل الإعلام المرئية والسموعة . ونشر الفساد من خلال بعض السلوكيات المرتبطة بالمرأة مثل تنظيم مسابقات الجمال وعروض الأزياء ، والمهرجانات المختلفة التي تظهر فيها المرأة في أوضاع شائنة مشيرة للغرائز ، ومن خلال استغلال المرأة في أفلام الجنس والعنف ، والسماح بممارسة البغاء ، ولا يخفى ما لهذه الممارسات الدينية من تأثير مدمر على المجتمع الغربي .

أما ما يدعوه المستشركون من وضع قيود على عمل المرأة فالمجتمع الإسلامي لم يمنع المرأة من العمل ، ولكن حدد لها المجالات التي تتناسب مع طبيعتها ، ولا تعرض كرامتها للمهانة ، ولا يجعلها تختلط بالرجل الأجنبي عليها ، لما ينبع عن ذلك كله من انتشار للذبحة والفساد في المجتمع ، ومن تحقيير للمرأة وفقدان لكرامتها ، ومن تأثير سلبي على الأسرة . وقد أكد المجتمع المسلم على أن الأسرة هي ميدان المرأة وعملها الرئيسي حرصا على سلامة الأسرة وضمان التربية والتنشئة السليمة للأبناء ، وتأمين الأمان الاجتماعي والنفسى للأطفال ولرب الأسرة وللمجتمع ككل باعتبار الأسرة أساس الحياة الاجتماعية . وهى أمور افتقدتها المجتمع الفرى بسبب الإفراط فى عمل المرأة وتحميلها المسؤوليات المادية ، بالإضافة إلى المسئولية الاجتماعية . وقد أدى العمل إلى إهمال شئون الأسرة والأطفال ، وإلقاء تبعية التربية والتنشئة على الحضانات والمربيات ، وحرمان الأطفال من حنان الأمهات ، الأمر الذى أدى إلى انتشار الأمراض النفسية والاجتماعية ، وتفكك الأسرة وتدهور العلاقات بين أعضائها .

ثانياً : مسألة تعدد الزوجات :

ومن المسائل المتعلقة بوضع المرأة في الإسلام ، والتي أساء المستشركون فهمها، مسألة تعدد الزوجات ، فقد اعتبروا التعدد ظهراً من مظاهر الاضطهاد الإسلامي للمرأة وتحويلها إلى أمة للرجل ، وإهدار كرامتها ، وجعلها في مرتبة تالية للرجل من حيث الأهمية والقيمة. وليس من جديد في القول بأن النظرة الاستشرافية للتعدد مبنية على

أساس من رؤية سطحية لوضع المرأة المسلمة تعزل جزئيات من وضع المرأة وتناقشها داخل إطارها المحدد ، فتبعد سلبية ، مع أن واجب الدراسة العلمية الموضوعية أن تنظر إلى الأمر في شموليته ، وداخل إطاره العام حتى يتم الفهم الصحيح لموضوع التعدد . يقع الاستشراف مرة أخرى في خطأ المقارنة بين وضع المرأة المسلمة ووضع المرأة الغربية متجاهلاً في هذه الحالة فضائل التعدد ورذائل عدم السماح به كما هو الحال في المجتمع الغربي ، والذى هو في حقيقة الأمر مجتمع تعددى غير ملتزم في التعدد الذى يمارسه بقوانين دينية أو أخلاقية . فلقد سمح للرجل بمعاشرة عشرات النساء ، ويسمح للمرأة بمعاشرة عشرات الرجال دون أن يضع ضوابط دينية أو أخلاقية لهذا النوع من التعدد السائد في الحياة الغربية والذي أدى إلى انتشار الفساد الأخلاقي وانتشار الأمراض النفسية والاجتماعية والصحية . كل هذا يعلم المستشرق علم اليقين ويرفض مع ذلك قبول التعدد الشرعى في الإسلام والذي وضعت له شروط ، والتزامات ، وشرائع تضبطه وتتحكم فيه وتضمن فيه الحقوق للزوجات والأبناء . ولا يمكن الحكم على مثل هذا المستشرق إلا بالجهل لحقيقة وضع التعدد في الإسلام ، وضوابطه ، والقوانين المنظمة له ، وفضائله في منع الرذيلة والفساد ، وحل المشاكل الإنسانية ، أو الحكم عليه بالتعصب الأعمى ضد الإسلام ومجتمعه والتعصب الأعمى لمجتمعه الغربي ، وهو أعمى في هذه الحالة لأنه يتغاضى عن التعدد الموجود في الحياة الغربية^(٣٢) . وهو تعدد محرم : ففيه خروج على تعاليم الدين والشرع والأخلاق ، فضلاً عن نتائجه الضارة للمجتمع من فساد ،

وضياع للأنساب ، وانتشار للأمراض ، وتشريد للأبناء ، وإهانة للمرأة التي ترى بعين رأسها زوجها يدخل في علاقات محرمة مع آخريات ولا تستطيع إلا أن تبادله الواقع في المحرمات بالدخول في علاقات محرمة مع رجال آخرين . وعلى كل فالرد على شبهة التعدد عند المستشرقين يمكن أن يتم من خلال مواجهته بالواقع الغربي الذي يسمح بالتعدد دون حماية شرعية ، وأيضاً من خلال توضيح المبررات التي اعتمدتها الإسلام في السماح بالتعدد والشروط التي وضعها لذلك ، وتبين فضائل التعدد في ظل الأسرة تحت ظل الشرعية ، عن التعدد الذي يمارس بشكل حيواني في الغرب وبدون حماية قانونية أو مراعاة للعلاقات الإنسانية .

أما مواجهة المستشرق بواقعه الغربي الذي يسمح بالتعدد خارج إطار الأسرة وبدون قيود دينية ، أو شرعية ، أو أخلاقية (٣٣) فنشير في هذا الخصوص إلى أن مفهوم الحرية المطلقة في الغرب أدى إلى تطور أعراف وتقالييد اجتماعية تسمح لكل من الرجل والمرأة بالدخول في علاقات عاطفية خارج حدود الأسرة ، وخارج نظام الزواج ، ودون أن تكون هناك أية التزامات من جانب الرجل أو المرأة . وليس من هدف مثل هذه العلاقات المنحرفة سوى إشباع الرغبات الجنسية لدى الرجل والمرأة ، والتي تحولت إلى رغبات حيوانية لا ضابط لها .

ولابد من مواجهة المستشرق بأضرار هذا التعدد المسموح به خارج إطار الأسرة والزواج . ففيه أولاً إهانة لكرامة المرأة من خلال العلاقات المتعددة التي تحولها إلى سلعة تباع وتشترى ، وتلقى في سلة المهملات حين تستهلك وتؤدي غرضها . ونذكر المستشرق بالأضرار الاجتماعية

والنفسية التي تصيب المرأة والرجل في هذا الخصوص حيث يفقد كل من الرجل والمرأة صفة الاتباع الحقيقي ، وتنتفى المودة والرحمة في مثل هذه العلاقات التي لا تهدف إلى إقامة رابطة اجتماعية أو علاقة عاطفية سليمة ، ولكن تهدف إلى تحقيق إشباع النزوات والشهوات التي أصبحت نوعاً من أنواع الإدمان الذي يمارسه الإنسان بدون ضوابط ، والذي تعدى فيه حدود الإنسانية ، وتحول إلى حيوان بل إن بعض الحيوان أفضل من الإنسان في هذا الخصوص .

ومن الأضرار الأخرى الناجمة عن مثل هذا التعدد المسموح به في الغرب ضياع الرابطة الأسرية والاجتماعية التي هدف إليها الشرع من خلال الزواج . ففي مثل هذا التعدد ضياع الأنسباب الاجتماعية في حالة الإنجاب حيث لا يعرف الأب في مثل هذه الأحوال ، فتضييع الحقوق ، وتفسد تربية الأبناء الذين يعتبرون في هذه الحالة لقطاء يتم التخلص منهم ^(٣٤) ؛ إما من خلال الإجهاض قبل الولادة ، أو من خلال وضعهم في الملاجيء بعد ولادتهم ، وفيها يتعرض الأبناء لتربية غير سليمة اجتماعياً ونفسياً بدون رعاية من أب وأم . ويسبب هذا الوضع للمرأة إحساساً بالندم والضياع لإهمالها أداء واجباتها الأسرية ، وفقدانها الاتباع العائلي ، وتصاب بالأمراض النفسية والصحية مثل الاكتئاب والأزمات النفسية . وهي من الأمراض الشائعة في الغرب .

وإضافة إلى هذا ينجم عن التعدد المسموح به في الغرب انتشار المفاسد الأخلاقية والاجتماعية : حيث تختلط القيم ، ولا يستطيع الإنسان التمييز بين الحلال والحرام ، والصحيح والمخطأ ، والخير والشر .

وهو اختلاط للقيم أدى في كثير من الأحيان إلى التأثير على الأخبار وغير المعرفين من خلال اتهامهم بالتزمر والتخلف لأنهم يخرجون على الأعراف والتقاليد التي انتشرت وأصبحت السمة الأساسية للمجتمع. ومن الأخطار الاجتماعية الناجمة عن هذا التعدد انتشار المخدرات والمسكرات، وكل أشكال الإدمان ، وانتشار الجرائم الأخلاقية وبخاصة الجرائم الجنسية كالاغتصاب، والشذوذ الجنسي ، والإجهاض. هذا فضلاً عن انتشار الأمراض وأهمها في الفرب - في عصرنا الحالي - الإيدز . والذى أثبتت الأبحاث الفريبة أن من أهم أسباب العلاقات الجنسية المتعددة والشذوذ الجنسي . واعتبرت أن من أهم سبل الوقاية من هذا المرض الخبىث البعد عن العلاقات الجنسية غير الطبيعية والعودة إلى تقاليد الأسرة حماية للأزواج والزوجات والأبناء .

أما المواجهة الثانية مع المستشرق فتحتخص بتوضيع حقيقة التعدد ، والظروف التي أوجبته والشروط المرتبطة به ، والنتائج الإيجابية التي تربت عليه في حياة المجتمع المسلم ، وهي أمور نزعم أن المستشرقين على معرفة جيدة بها ، لكنهم يتغاهلونها في سبيل تحقيق هدف التشويه للإسلام وللمجتمع الإسلامي . فالتنوع الذي سمع به الإسلام لم يكن لإرضاء شهوات ورغبات جنسية كما هو الحال في الفرب ، ولكنه تعدد في ظل نظام الأسرة وفي ظل نظام الزواج الشرعي حسب الكتاب والسنة ، وذلك ليعطى المرأة حقوقها ، ولا تخضع المسألة لرغبة الرجل وزرواته . فالتنوع فيه زيادة في الالتزامات والأعباء وفيه حقوق للزوجات والأبناء ، ويطلب قدرة على العطاء العاطفي والمالي ، وتحقيق الأمان الاجتماعي والاقتصادي للزوجة والأبناء في ظل أحكام الشريعة .

والتعدد الذي يرفضه المستشرق حالياً في شكله الشرعي كان موجوداً في اليهودية والنصرانية كما تدل على ذلك نصوص العهد القديم والجديد، وكان له وجوده في الشرائع السابقة . وقد أبقى عليه الإسلام بعد تهذيبه وأخضاعه للشرع ، وتحديده لضمان تحقيق أهدافه بعيداً عن الانحراف والفساد ، وحفظاً للأنفس والآثواب . ومن عناصر تهذيب التعدد الوقوف به عند عدد يكفل حاجة الرجل ووجوب العدالة في مطالب الزوجات بعيداً عن الميل والانحراف « وإن خفتم ألا تقسطوا في البثامى فانكعوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » سورة النساء الآية ٣ . ويقول سبحانه وتعالى : « ولن تستطعوه أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتقذروها كالمعلقة وإن تصلعوا وتنقروا فإن الله كان غفوراً رحيمًا » سورة النساء الآية ١٢٩ .

وبالإضافة إلى وجود التعدد في الشرائع الماضية وتهذيبه في الإسلام لتحديده ووجوب تحقيق العدالة بين النساء ، فهناك مقتضيات للتعدد من حيث طبيعة الجنسين : حيث يلبى التعدد طبيعة أو سنة الله في كونه . فالواقع " أن الطبيعة تسخو بالنساء أكثر مما تسخو بالرجال وتقسّى على الرجال أكثر مما تقسّى على النساء ، وأن الاتجاه الطبيعي للجماعات في كل العصور إلى القوة لا إلى الضعف ، وأن الرجل تطرد قوته الفاعلية إلى حياة أطول مما تستعد له قابلية المرأة ، وأن الرجل لا تعتريه فترات يفقد فيها استعداده على نحو ما يعتري المرأة من هذه الفترات ، وكان من الرجال من تغلب عليه جنسيته لا محضنه المرأة

الواحدة ... إذا كان هذا هو الواقع ، كان بلا شك مما يقضى بتبرك الشريعة كما أرادها الله ، لاتقىد إلا بما قبدها به من مراعاة العدل بين الزوجات في الحدود التي رسمها صاحب الشريعة ٠^(٣٥)

وهكذا تقضى طبيعة الجنسين وسنة الله في كونه بالتعدد منعًا لترك الرجل والمرأة تحت ضغط الطبائع والسن ففيضطران إلى مقاومة الإثم مدفوعين بالطبيعة والسن^(٣٦) ٠

وقد نبه الله سبحانه وتعالى إلى هذا في قوله : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا »^(٣٧) . وهناك مقتضيات إنسانية أخرى جعلت التعدد أمرًا شرعياً ومتقبلاً لعلاج حالات إنسانية لا تجد لها علاجاً آخر . ومن هذه الأسباب الداعبة إلى التعدد الرغبة في الإنجاب في حالة عقم الزوجة الأولى ، وفي حالة المرض الطويل ، وعدم قدرة الزوجة على القيام بواجبات الأسرة والزوج ، وفي حالة طول فترة الدورة الشهرية ، وعدم إقبال بعض النساء على الرجال ، وقلة رغبتهن ، وعدم قدرة الرجال على التحكم في غرائزهم^(٣٧) ، وفي حالة كثرة عدد النساء في المجتمع وقلة عدد الرجال خاصة بعد المروءات .

هذه هي الحقائق الأساسية حول التعدد الذي جعل منه الاستشراق شبهة كبرى يستخدمها لتشويه صورة المجتمع المسلم وتشويه وضع المرأة المسلمة ، وتشويه صورة الإسلام في النهاية ، وهو بلا شك هدف استشرافي أساسى يسعى إلى تحقيقه بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة . ويمكن في النهاية تحديد الأخطاء الاستشرافية في معالجة قضيابا المرأة المسلمة بعيداً عن الموضوعية والحياد العلمي المطلوب في أن

المستشرقين دأبوا على تزييف الحقائق الإسلامية ، وتقديم صورة مشبوهة للمجتمع المسلم لا تنم عن جهل بالحقيقة ، ولكن تشير إلى رغبة متعمدة في التشويه . والخطأ الاستشرافي الثاني يبدو كما قلنا في عزل بعض الحقائق حول وضع المرأة عن الرؤية الإسلامية الشاملة في هذا الخصوص ، فتبعد هذه الحقائق وكأنها سلبية ومسيئة لوضع المرأة ولطبيعة المجتمع المسلم . وهذا يشير إلى جزئية ثابتة في المنهج الاستشرافي تؤكد عدم موضوعيته ورغبتها في التشويه ، وهي افتقطاع جزئية من صورة عامة ومعاجلتها بشكل مستقل عن هذه الصورة الكلية فتظهر سلبية بالنسبة للجميع . وهذا يذكرنا بن يقطنطع جزءاً من آية قرآنية ليدل على وجود سلبية ، أو لبيان معرفما ، أو غير ذلك من الأمور والمثال المعروف في هذا الخصوص مثال « ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فيأخذ « ولا تقربوا الصلاة » وبهم « وأنتم سكارى » . والخطأ الاستشرافي الثالث يظهر في عقد مقارنة أو مقابلة غير مناسبة وغير منهجية بين وضع المرأة المسلمة ووضع المرأة الغربية دون النظر إلى اختلاف البيوتين الإسلامية والغربية ، واختلاف القيم ، والأخذ بالظاهر الشكلي دون التعمق الذي يوضح الفارق بين الحالتين . مع أن المقارنة الموضوعية ستنتهي حتماً لصالح وضع المرأة المسلمة . والخطأ يمكن بطبعية الحال في إسقاط وضع المرأة الغربية على المسلمة ، وفهم وضع المرأة المسلمة من خلال رؤية وخلفية غريبة خالصة .

هذا وقد أشرنا في الرد على النظرة الاستشرافية لوضع المرأة المسلمة إلى حقائق حول وضع المرأة الغربية وإلى حقائق حول قبول الغرب لنظام

غير شرعى وغير أخلاقي للتعدد يشير إلى اعتراف الغرب بالضرورات التي تبيح التعدد ، والمرتبطة بطبعية الجنسين، وبطبعية العلاقات الاجتماعية بين البشر . ومع ذلك فعندما يبحث الغرب عن حل لهذه الأمور يأتي بحل غير أخلاقي يسمع بالتعدد خارج إطار الزواج والأسرة، ويتناقض مع الفهم الغربي المرجح لمفهوم الحرية في العلاقات بين الجنسين وتكون النتيجة التي يعاني منها الغرب حالياً وهى انتشار المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والأمراض النفسية والصحية ، وتفكك العلاقات الأسرية وهى أمور مؤدية في النهاية إلى تدهور المجتمع وسقوطه .

الفصل الرابع

آثار الفكر الاستشراقي في المجال الاقتصادي

١- دور الغرب في تدهور الاقتصاد الإسلامي :

امتدت آثار الفكر الاستشراقي إلى الحياة الاقتصادية للمسلمين في القرن العشرين حيث وقعت المجتمعات الإسلامية تحت تأثير نظامين اقتصاديين من النظم الاقتصادية الغربية المتناقضة وهما : النظام الرأسمالي والنظام الشيوعي . وقد لعب الاستشراق الدور الرئيسي في إحداث هذا التأثير . وقد كان الدور الاستشراقي دوراً مزدوجاً حيث جمع بين الهجوم على النظام الاقتصادي الإسلامي ونقده ، واتهامه بالعجز في حل المشاكل الاقتصادية للمجتمعات الإسلامية : وبين نقل النظريات الاقتصادية الغربية لكي تكون بديلاً للنظام الاقتصادي الإسلامي . وقد اهتم مستشرقو الغرب الرأسمالي بشرح الرأسمالية وتفسيرها لشعوب الشرق ، وتصویرها في صورة النظام الاقتصادي النموذجي للعالم الإسلامي . وفي نفس الوقت سعى المستشرقون الشيوعيون إلى شرح النظرية الاقتصادية الشيوعية الاشتراكية ، والعمل على نشرها في البلاد الإسلامية التي وقعت تحت النفوذ السياسي والاقتصادي للاتحاد السوفييتي قبل انهياره . بل إن الأمر لم يتوقف عند حد تقديم النظريتين ، ولكن تعداه إلى إعادة تفسير التاريخ الاقتصادي الإسلامي من وجهة نظر الرأسمالية والشيوعية كنوع من التأصيل للنظريتين ، وتقديمهما على أنها لا يمثلان خروجاً على النظام الاقتصادي الإسلامي .

وبداية نقول إن تدهور الاقتصاد الإسلامي في الماضي لم يكن سببه خلل أو ضعف في النظام الاقتصادي الإسلامي، ولكنه يعود إلى الحرب الاقتصادية التي شنها الغرب على العالم الإسلامي الذي كان موقعه الجغرافي فرائد اقتصادية عظيمة «حيث تحكم المسلمين في طرق التجارة القديمة وفي المسالك البرية والبحرية بين أوروبا وأسيا». كما تمكن من السيطرة على التجارة البحرية في المحيط الهندي، وأنشأ علاقات تجارية منتظمة مع الشعوب المجاورة، وتكون من الاتصال المنتظم بهذه الشعوب وثقافتها، وتفوق عليها في تقديم الوسائل الاقتصادية والفنية وفي المدنية المادية بوجه عام^(٣٩)، ويعرف المستشرق جب بأن التدهور الاقتصادي للعالم الإسلامي يعود إلى أسباب داخلية وخارجية. وشرح الأسباب الخارجية بقوله: «أما ثانية الضربات القاضية فقد أتت من أن أوروبا اهتدت إلى أن العالم الإسلامي يمكن أن تؤخذ عليه السُّبل طبيعياً واقتصادياً في آن واحد إذا فتح الطريق البحري إلى غرب أفريقيا والهنـد. ولم تكن نتيجة هذا قاصرة على نزف أكبر معين للرخاء الاقتصادي، ولكنه جعل العالم الإسلامي في عزلة ... وقضى عليه بالكساد الاقتصادي وبكل ما يصحبه من الآثار في الحياة العقلية والأدبية للأمة»^(٤١). ثم يربط جب بين الهجوم الاقتصادي والسياسي فيقول: «سار العالم المسيحي في الهجوم الاقتصادي بخطوات سريعة. فالشركات التجارية الأوروبية لم تقف بباعث من المنافسات الدولية عند احتكار حمل تجارة الدنيا القديمة فحيثما كانت السلطة السياسية المحلية تدعى إلى التدخل كانوا يعلنون حكمهم المباشر محلها. وبذلك بدأوا

ينشرون سلطانهم السياسي شيئاً فشيئاً على بلاد إسلامية مختلفة ... ويشقون بالقوة منفذًا في العالم الإسلامي لمنتجاتهم الخاصة منافسين مصنوعات البلاد المحلية^(٤٢). وهكذا سار التغلغل الاقتصادي مقارناً للنشاط السياسي وانتهى بترويض هولندا قدمها في جزر الهند الشرقية والإنجليز قدمها في الهند على حساب الدول الإسلامية . وتم الاستيلاء على السوق الشرقي لتصرف نتاج المصنع الأوروبية ، وربط الحياة الاقتصادية المسلمين بالحياة الاقتصادية لأوروبا مما أدى إلى إضعاف الاقتصاد الإسلامي وقدانه لاستقلاله^(٤٣).

وقد استمر هذا التدهور الاقتصادي للمسلمين منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وحتى وقتنا الحالى . ونتج عنه التبعية الكاملة للغرب في المجال الاقتصادي . ومن مظاهر هذه التبعية تغلغل النظم الاقتصادية الأوروبية إلى أن تم نشر الفكر الاقتصادي الغربي في القرن العشرين في بلاد المسلمين من خلال فرض الرأسمالية والشيوعية على البلاد الإسلامية . وقد نتج عن هذا في التاريخ الاقتصادي الحديث والماصر للمسلمين ما يلى :

- أ- ضياع الوحدة الاقتصادية للمسلمين . فقد أصبح العالم الإسلامي موزعاً بين النظمين الرأسمالي والشيوعي، وأصبحت تجارتهم تابعة تبعية كاملة لأحد النظمين . وتم ربط الاقتصاد في المجتمعات الإسلامية بالاقتصاد الرأسمالي والشيوعي ، وفقد المسلمون مكانتهم الاقتصادية العالمية وأصبحت بلادهم سوقاً واسعة ل المنتجات الصناعية والزراعية للعالم الغربي .

بـ- أدت التبعية لنظامين اقتصاديين متناقضين إلى تفتت وحدة العالم الإسلامي ، فانقطعت العلاقات التجارية والاقتصادية بين البلاد الإسلامية، وأصبحت كل مجموعة من هذه البلاد تابعة لبلدان النظام الاقتصادي الذي تتبعه، وانقسم المسلمين بين المعاصرتين الرأسمالي والشيعي .

ج- تعطيل المؤسسات الاقتصادية الإسلامية ، ووقف تطورها وغواها
لمصلحة المؤسسات الغربية واستبدال النظم الاقتصادية الإسلامية بنظم
غربية خالصة .

د- نقل القيمة الاقتصادية الغربية والمبادئ المهيمنة في نظام السوق العربي، والقضاء على القيم الإسلامية التي تحكمت في الاقتصاد الإسلامي :

هـ- عرقلة البرامح الاقتصادية الإسلامية والجهود التنموية
للمجتمعات الإسلامية .

٢- الصحوة الإسلامية وأصلاح النظام الاقتصادي :

وفي التاريخ المعاصر للمسلمين ومع تبلور الصحوة الإسلامية بدأت المجتمعات الإسلامية تسعى إلى إحياء وتنشيط العمل الاقتصادي الإسلامي على أساس إسلامية . وقد انبرت الدراسات الاقتصادية تتعرض لعدم صلاحية النظاريين المستوردين من الغرب للحياة الإسلامية ، وتوضيح فضل النظام الاقتصادي الإسلامي . وقد تبع هذه الصحوة على المستوى الاقتصادي إنشاء مؤسسات اقتصادية إسلامية تتخذ من نظريات الاقتصادية الإسلامي أساساً لها ، وتحاول تطويرها لتناسب متطلبات العصر بدون الإخلال بالأساس الإسلامي .

ومن أهم الأسس التي تعتمد عليها النظرية الإسلامية في الاقتصاد والتي تميزها عن النظرية الغربية الأساسية الدينى العقدي الذى يعتبر الله سبحانه وتعالى مالك الملك ، وأن الإنسان المخلوق مستخلف في الأرض لعمارتها ، وأن الغاية من حياة البشر عبادة الله ، وأن العمل الصالح هو لب العبادة ، وأن الانتاج والسعى ابتغاء لفضل الله ، وأن لكل عمل جزاء، ولأجزاء بلا عمل ، وكل ثمن يُفرم فلا يحل كسب يرفع عن صاحبه احتمال الخسارة ، وأن المجتمع الإنساني مجتمع متكافل والتمايز فيه بقدار العمل لصالح المجتمع ككل، وأن واجب الدولة تحقيق العدل والإحسان وحفظ الأمانة. فالترحيد والاستخلاف والثواب والعقاب من أهم القواعد التي يرتكز عليها الاقتصاد الإسلامي^(٤٤).

وهناك الأساس الأخلاقى المميز للنظام الاقتصادي الإسلامي وهو يتمثل في تحرير الفرد من السيطرة، وعدم الخضوع إلا لذات المخالق، ونفع عباد الله ، وجلب المنفعة المادية ، والتمتع بالحلال بالطيبات الحلال. وهناك الأساس التشريعية التي تتناول العمل والملكية والتبادل والعقود وواجبات الدولة وحقوقها قبل المعاملات والتي نص عليها القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة وأحكام الفقهاء والمجتهدين^(٤٥).

وهكذا يتضح أن الفكر الاقتصادي الإسلامي مرتبط بالعقيدة والشريعة، وأن السلوك الاقتصادي للمسلم ليس منعزلاً عن قواعد الدين والأخلاق ، وأن الأفكار الاقتصادية مرتبطة بالدين. وهذه ميزة خص الله - سبحانه وتعالى - بها الحياة الاقتصادية الإسلامية . «فالرفاهية الإنسانية لا تُقاس في الإسلام بمقاييس نقدى، وإنما بالموازنة بين كسب

النقد من مصدر حلال وإنفاتها وفقاً لتعاليم الإسلام بما يحقق مجتمع الرحمة والعدل »^(٤٦).

ولعل من أهم ما يميز النشاط الاقتصادي في الإسلام طابعه التعبدي، فعمل المسلم عبادة يُثاب عليه إذا كان القصد منه نيل رضى الله. وهو نشاط لا يهدف إلى تحقيق النفع المادي فقط ولكنه يسعى إلى تحقيق هدف أسمى وهو «إعمار الأرض وتهيئتها للحياة الإنسانية ، تحقيق خلافة الإنسان في الأرض وإيمانًا بأن الله سيسأل الإنسان عن هذه الخلافة»^(٤٧). وخلو النشاط الاقتصادي الغربي من هذه الغاية هو الذي أدى إلى سيادة المصلحة الشخصية المزدوجة إلى تحقيق السيطرة الاقتصادية ، وغلبة الطابع الاحتكاري على السوق . كما أن غياب الرقابة الدينية على النشاط الاقتصادي في الغرب أدى إلى انحرافه وانتشار ظواهر التسيب والإهمال والاختلاس^(٤٨).

وتتطلب عملية تطوير النظام الاقتصادي الإسلامي في الوقت الحالي مراجعة الفكر الاقتصادي في صدر الإسلام لفهم الظواهر الاقتصادية ، ومعرفة المبادئ التي وضعت لتنظيم الشؤون الاقتصادية ، والمبادئ التي حددت السلوك الاقتصادي للمسلم وإبراز أهمية الفكر الإسلامي في إيجاد حلول للمشكلات الاقتصادية على أساس من القيم الدينية والأخلاقية . وتوضيع فضل الفكر الاقتصادي الإسلامي على الفكر الاقتصادي في الغرب. وهو أمر تجاهله المستشرقون الذين يتتجاهلون الجهد العلمية التي بذلها المسلمون في تطوير الفكر الاقتصادي في العصور الوسطى التي عانى فيها الفكر الأوروبي من الانقطاع خاصه

في مجال الفكر الاقتصادي^(٤٩). كما أنهم في تناولهم لموضوعات الاقتصاد الإسلامي حاولوا دراستها خارج الإطار الديني والأخلاقي الذي وضعَت فيه. فالأمانة والصدق ورعاية المقاصد الشرعية الكبرى ، وجود ولـى أمر يعاقب المذنبين وسهر على التزام التعاملين بحدود الشريعة وأخلاق الإسلام ... يمثل هذا كله الإطار العام الذي تتحرك داخله الأفراد والشركات في النظام الإسلامي^(٥٠) وفي هذا يقول جارودي «الاقتصاد الإسلامي لا يهدف في مبدئه القرآني إلى النمو بل يهدف إلى التوازن . لذا لا يمكن مقارنة الاقتصاد الإسلامي بالنظام الرأسمالي ... ولا بالنظام الجماعي على الطريقة السوفيتية . إن من ميزاته الأساسية عدم الخضوع إلى حركية عصياً يجعل الاقتصاد غاية في ذاته . بل يتعلق بأهداف سامية إنسانية والهبة تتجاوزه»^(٥١).

الفصل الخامس

الآثار السلبية للفكر الاستشرافي فى المجال الثقافى والفكري

يعتبر المجال الثقافى والفكري من أخطر المجالات التى يستخدمها الاستشراف لإحداث تأثيره الكبير على الحياة الفكرية فى المجتمعات الإسلامية . فعن طريقه انتقلت الأفكار والمذاهب الغربية خلال القرنين الأخيرين ، ووُجِدَت لها مكاناً في الحياة الثقافية للمسلمين . ونظراً لتنوع مذاهب المستشرقين وأيديولوجياتهم فقد تعددت أشكال الغزو الفكرى ، وتنوعت الاتجاهات الفكرية ، وكثُرت المذاهب التي ازدهرت بها الساحة الفكرية في المجتمع الإسلامي مثل الشيوعية ، والاشراكية ، والعلمانية ، والرأسمالية ، والقومية ، والليبرالية ، وغيرها من المذاهب التي سبّطت على قطاعات عريضة من المفكرين والمشفّفين في العالم العربي والإسلامي .

ويعتبر الفكر الاستشرافي - في حد ذاته- من أخطر أنواع الفكر تأثيراً على الفكر الإسلامي . فالمستشرقون كمجموعة من العلماء تخصصوا في العلوم الإسلامية وفي المجتمع الإسلامي، وتعمقوا في الفكر الإسلامي ، أصبحوا على قدر كبير من المعرفة بالجوانب التي يمكن للغزو الفكرى الغربى أن ينفذ منها إلى الفكر الإسلامي . فالشخص في دراسة المجتمعات الإسلامية جعل المستشرقين على دراية بمواطن الضعف التي يمكن استغلالها في توصيل المعرفة الغربية . كما أنهم تمعنا بقدر

من القراءة والنفوذ بسبب ارتباطهم بالاستعمار والتنصير والصهيونية الأمر الذى جعلهم على مقدرة من تنفيذ خططهم لغىبيرو وجه الثقافة الإسلامية ، والعمل على تغريب العالم الإسلامي . وقد تمكن بعض القادة من المستعمرات من القيام بدور ثقافى كبير فى تحقيق الغزو الفكرى للشعوب الإسلامية التى كانت خاضعة للاستعمار . ونكتفى بالإشارة إلى الدور الذى لعبه اللورد كرومتر فى مصر وجلوب باشا وجوردون فى السودان (٤٢) .

وقد تمكن الاستشراق من النفاذ إلى الفكر الإسلامي الحديث من خلال العديد من النظريات الغربية التى ارتبطت بالعلوم الإنسانية والاجتماعية التى تدرس فى العديد من الجامعات العربية والإسلامية ، ويدرسون إعطاؤه البديل الإسلامى لهذه النظريات . ومن هذا الطريق تسربت إلى التعليم الجامعى معظم النظريات الغربية فى التاريخ ، والدين ، والمجتمع ، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، والأخلاق .. وغير ذلك من المجالات العلمية . وقد انتقلت هذه النظريات من ساحة التدريس بالجامعات إلى الحياة الفكرية والثقافية العامة، وذلك لما للجامعات من دور فى نقل الفكر خاصة وأن معظم الأكاديميين اشتغلوا فى الحياة الفكرية العامة لبلادهم، ولهم تأثيرهم الكبير على الحركة الفكرية التى يغذونها بالنظريات ، والأراء ، وعمليات النقد المختلفة (٤٣) . وقد نجح الاستشراق فى تكوين قاعدة علمية وثقافية له من أبناء المسلمين الذين يقومون بترويج آراء المستشرقين ونظرياتهم فى بلادهم الإسلامية وت تكون هذه القاعدة الاستشرافية العلمية من تلاميذ المستشرقين تلقوا تعليمهم

العالى فى جامعات ومعاهد الغرب تحت إشراف المستشرقين ، ويدون وجود أساس دينى وأخلاقي قوى يعصنهم ضد الآراء الاستشراقية ، وعادوا إلى بلادهم - أو بقوا فى الغرب - يرددون النظريات والشبه الاستشراقية ويقومون على شرحها ، وتفصيلها ، وتطبيقها فى تخصصاتهم . وقد كان لهم دور كبير فى نشرها نظراً لأنهم يكتبون بالعربية ، أو بإحدى لغات الشعوب الإسلامية بينما ظلت معظم آراء المستشرقين حبيسة الكتاب الأجنبى المكتوب بلغة أجنبية لا يعرفها القارئ المسلم فى معظم الأحوال ، أو لا يستطيع الحصول عليها فى حالة معرفته للغة الأجنبية .

ويهدف الغزو الفكرى الاستشراقي للثقافة الإسلامية إلى تحقيق عدة أهداف نرصد منها الأهداف التالية :

- تشتيت الجهود الفكرية والثقافية والعلمية المسلمين وذلك بنشر النظريات والأراء الغربية الفاسدة التى لا تصلح للمجتمع المسلم ، وإشغال المفكرين المسلمين بالرد على هذه النظريات والأراء ، وخلق مناخ من الفوضى هدفه إبعاد العلماء المسلمين عن التفكير فى القضايا الإسلامية الحقيقة التى يواجهها العالم الإسلامي مثل قضايا التخلف العلمي، وقضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وعلاج هذه المشاكل على أساس من النهج الإسلامي فى التفكير، وعلى أساس من القاعدة الدينية والأخلاقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وتسعى الجهود الاستشراقيه فى هذا الصدد إلى طرح العديد من البدائل العلمانية والحلول الغربية لقضايا المجتمع الإسلامي بدعوى عجز الفكر

الإسلامى عن إيجاد حلول للمشاكل الحديثة التى يتعرض لها المجتمع المسلم : ويدعوى ربط التخلف بالدين ، واعتبار الدين عقبة فى سبيل تقدم المجتمع ؛ ويدعوى أن الغرب لم يتقدم علمياً إلا بعد هجر الدين وعزله ، وفصل الدين عن الدولة ، واعتبار الدين أمراً شخصياً يُمارس على المستوى الشخصى ويجب ألا يكون له دور فى تنظيم وإدارة شئون الجماعات . وأنه على المجتمع المسلم أن يسير فى طريق الغرب ويتبنى طرقه ووسائله وأفكاره إذا أراد أن يتحقق التقدم العلمي والتنمية المنشودة فى كل مجالات الحياة الإسلامية .

وقد نجح الاستشراق فى إثارة الشكوك الإسلامية حول جدوى التمسك بالتناول الإسلامي أو المعاجلات الإسلامية لمشاكل المجتمع المسلم . فهو يُشكّك فى قيمة التعليم الدينى السائد خاصة فى الجامعات الإسلامية ، ويدعو إلى ما يسمى تحديث العلوم والمناهج ، وهجر الطريق التقليدية فى التعليم ، ووضع أسس جديدة للتعليم تقوم على نظريات ومناهج غربية . ومن الملاحظ أن الاستشراق نجح فى غزو الجامعات غير الدينية المنتشرة فى العالم الإسلامي واستخدامها فى ترويج النظريات الغربية فى كل مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية . كما تم تعديل المناهج الدراسية إلى الحد الذى أصبحت فيه مشابهة للبرامج العلمية التى تدرس فى الجامعات الغربية . وتم الاعتماد فى هذه الجامعات فى المجتمع الإسلامي على تدريس الكتب الغربية الأصلية من خلال ترجمتها إلى اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية وبدون نقد علمى وإسلامى لها : أو عن طريق تأليف كتب فى هذه الموضوعات

والخصصات الغريبة تشرح النظريات الغربية وتدافع عنها. ويسود هذا الاتجاه في العديد من الأقسام العلمية في الكليات النظرية مثل أقسام الاجتماع ، وعلم النفس ، والفلسفة ، والتربية ، والخدمة الاجتماعية . وقد حظى التخصصان الأخيران بكليات كاملة تقوم على تدريس البرامج التربوية والخدمة الاجتماعية موزعة على عدة أقسام علمية .

ويجب أن نشير في هذا المخصوص إلى نجاح الاستشراق في خلق مناخ من الصراع الفكري والعلمي بين المؤسسات العلمية والتعليمية في المجتمعات الإسلامية، وخلق فجوة كبيرة في البرامج التعليمية، والتوجهات الفكرية للتعليم في العالم الإسلامي. وأصبحت الجامعات في العالم الإسلامي موزعة بين عدة توجهات أو رؤى متصارعة تساعد على تقوية اخلاقات الفكرية داخل المجتمع المسلم . فهناك الجامعات الإسلامية ذات التوجه الإسلامي الواضح ، والتي تهتم بعلوم الدين الإسلامي وبالتجهيز الإسلامي للعلوم في مقابل التوجهات العلمانية المسيطرة على النوع الثاني من الجامعات المنتشرة في العالم الإسلامي . وهي الجامعات غير الدينية أو غير المتخصصة في علوم الدين، ومع ذلك فهي تحتوى على أقسام للعلوم الإنسانية والإجتماعية تتبنى النظريات الغربية. وتعالج الدين من زاوية غريبة خالصة يغلب عليها التوجه العلماني وتُخرج طلاباً على نوعية مختلفة من الفكر والثقافة والتفكير التي تهتم بها الجامعات الإسلامية . هذا وقد تمكن الاستشراق من إنشاء جامعات ومؤسسات تعليمية غريبة خالصة داخل المجتمع الإسلامي ، تتبع النظم الغربية في التعليم تبعية مطلقة^(٥٤) ، بل وتقع تحت الإشراف

الأجنبى وليس للسلطات العلمية والتعليمية الوطنية أية سيطرة عليها من أى نوع . فهناك مثلاً الجامعات الأمريكية المنتشرة فى مصر، ولبنان، وبعض بلاد العالم الإسلامي الأخرى ، وهنالك الجامعات البريطانية المنتشرة فى الهند ، والسودان ، والباكستان وغيرها . وهنالك الجامعات الفرنسية فى مصر والشمال الإفريقي وعموم القارة الإفريقية وفي المستعمرات الفرنسية السابقة . وفي هذه الجامعات التى تنشر الثقافة الأمريكية والبريطانية والفرنسية والأوروبية عامة يسود النظام الغربى فى التعليم ، وتسود النظريات الغربية ، وسود الترجمة العلمانية الإلحادي المعادى للدين . بل والأخطر من هذا كله خضوع علوم الدين الإسلامى فى هذه الجامعات للمناهج الاستشرافية فى الدراسة والتدريس حيث أن هذه الجامعات والمؤسسات ما هي إلا بذى استشرافية فى قلب العالم الإسلامى تُخضع علوم المسلمين لنهج المستشرقين بتوجهاته العلمانية اللادينية . خاصة وأن هذه الجامعات بها أقسام استشرافية خالصة مثل أقسام دراسات الشرق الأوسط فى الجامعات الأمريكية بالقاهرة وبيروت تدرّس بها العلوم المختلفة من وجهة نظر استشرافية بحثية ، ويقوم على ذلك فريق من المستشرقين بالإضافة إلى عدد من العلماء المسلمين الذين تربوا فى أحضان الاستشراق ومؤسساته الأوروبية . وكان الاستشراق قد نجح أيضاً فى التغلغل إلى التعليم الابتدائى ، والإعدادى ، والثانوى بفتح مدارس أجنبية إنجليزية ، وفرنسية ، وإيطالية ، وألمانية ، ويونانية ، وبهودية ... بدعوى خدمة الطوائف والأقليات المختلفة المنتشرة فى بلاد العالم الإسلامي الخاضع للاستعمار آنذاك . وقد استمرت هذه المدارس تؤدى وظائفها بعد نهاية

الاستعمار كُبُر ومرَاكِز للثقافات الغريبة تنشر الفكر الغربي وتدعّمه . وقد انتقلت العدوى إلى التعليم الوطني ذاته فسمحت وزارات التعليم في كثير من بلاد العالم الإسلامي بفتح مدارس للغات الأجنبية خاصة الفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية ، ومرَاكِز ثقافية أجنبية دون أن تضع عليها الرقابة العلمية والثقافية لمنع تحولها إلى مراكز للفزو الفكرى تعمل على تغريب العالم الإسلامي من الداخل متعاونة مع الدوائر الاستشرافية الأولى والأمريكية .

٢- نشر القيم الغربية :

سعى الاستشراق دانياً إلى نشر الأفكار الهدامة والآراء الفاسدة
هادفاً إلى هدم الأخلاق الإسلامية ، ونشر القيم الفربية في المجتمعات
الإسلامية من خلال الدعوة إلى الاتجاهات الأدبية والفنية التي لا تلام
البنية الإسلامية والتي تعكس قبساً غريبة خالصة . ويلاحظ في هذا
الجانب اهتمام بعض المستشرقين بنشر وتحقيق غاذج ونصوص من الأدب
السلبي المدفون في بعض المصادر الأدبية القديمة، بل واعتبار ما تقدمه
من غاذج لحياة منحرفة وفاسدة على أنه من طبيعة الحياة الإسلامية . وفي
هذا المخصوص نشير إلى بعض الأعمال الأدبية التي لقيت اهتماماً كبيراً
على يد المستشرقين تحقيقاً ، ونشرًا ، وترجمة مثل «ألف ليلة وليلة»،
وكتاب «الأغاني» للأصفهانى ، وما شابه ذلك من الأعمال الأدبية التي
تعرض لأنواع من الأدب الخالى من القيم الإسلامية . وقد توسع
المستشرقون من ناحية أخرى في استخدام مثل هذه الأعمال كمصادر
أساسية لموضوعات ودراسات تدخل في مجال الدراسات الدينية

والعقدية . وهو سوء استخدام لهذه المصادر في غير مواضعها مع إهمال المصادر الإسلامية الأساسية التي تعطي الصورة الإسلامية الصحيحة للموضوع المدروس .

وفي نفس الوقت سعى بعض المستشرين إلى نشر الاتجاهات الأدبية والفنية الغربية : وبعضها يدعو صراحة إلى الابتذال ، والانحلال ، والفساد باسم الأدب والفن . ومعظم هذه الاتجاهات مثل الرومانسية ، والرمزية ، والシリالية في الأدب والفن تعكس قيماً غربية خالصة ، وتعبر عن مشاكل المجتمع الغربي وأزماته ، ولا تصلح أبداً للتعبير عن قضايا المجتمع المسلم المختلفة عن المجتمع الغربي في طبيعته وأسلبه ، كما أنه لم ير بنفس المشاكل الغربية التي نتجت أصلاً عن البعد عن الدين ، وفصل الحياة الدينية عن الدنيوية ، فانتشر الفساد والانحلال ، وظهرت مشاكل عبر عنها الأدب الغربي بأساليبه ووسائله الخاصة . والتي لا تصلح للتعبير عن مشاكل المجتمع المسلم فضلاً عن علاجها . ولقد ظهرت الاتجاهات الأدبية والفنية في الغرب استجابة لعوامل داخلية ومشاكل المجتمع الغربي ، وهي اتجاهات يجمعها الإيمان بالحرية المطلقة للإنسان وللعقل الإنساني ، والإيمان بعدم جدوا الإلتزام بالدين والقيم النابعة منه ، والاعتقاد في عبود الحياة الإنسانية وسيادة اللامعقول فيها كنتيجة عكسية للاعتماد الكلى على العقل وما يتوجه من قيم إنسانية نسبية .

والحقيقة أنه مع الغزو الفكرى للمجتمعات الإسلامية انتقلت هذه الاتجاهات الأدبية والفنية ، وتلقفها الأدباء والفنانون المسلمين المقلدون

للغرب، والنبهرون بأفكاره ونظرياته دون أن يفكروا في مناسبتها للمجتمع المسلم، أو فيما تحتويه من قيم فاسدة ومنحلة لا تصلح للإنسان المسلم. لقد أدت هذه الاتجاهات الأدبية والفنية إلى نشر قيم غريبة فاسدة بين الشباب المسلم الذي يتلقى هذه القيم من خلال الأعمال الأدبية القصصية والروائية والمسرحية ، ومن خلال الأعمال الفنية التشكيلية وغيرها. وفي هذه القيم تقليد للمجتمع الغربي ، وهجر للتقاليد والعادات الإسلامية ، وخروج على التراث الإسلامي الأصيل في الأدب والفن ، ووقع في الرذائل بأنواعها ، وفي الإتحالبة ، والإباحية ، والعبيبة ، وإثارة للصراع داخل المجتمع المسلم بين قيم الإسلام وتقاليده وقيم الغرب المستحدثة .

٣- نشر الفكر غير العقلاني

عمل الاستشراق على نشر المخرافات والأساطير في المجتمعات الإسلامية ، ومحاربة الإسلام كدين للعقل ، وتشجيع الاتجاهات الدينية والفرق الصوفية التي تحتوى أفكارها وعقاندتها ومارستها على عناصر تساعد على تفسيب العقل المسلم ، أو توجيهه لخدمة أهداف ترفع من قيمة المخرافات ، وتهدر القيم العقلية، وتسلب المسلم قدراته العقلية. وينظر هذا الهدف الاستشرافي في الاهتمام الذي يوليه الاستشراق لتحقيق ونشر وترجمة الأعمال الخاصة بالفرق الإسلامية والطرق الصوفية وكذلك في الدراسات التي تهتم بالأداب الوثنية التي أنتجتها الشعوب الإسلامية في فترة جاهليتها قبل دخولها في الإسلام مثل الاهتمام بالأساطير العربية القديمة ، وأساطير شعوب الشرق الأدنى القديم .

وقد ظهر الاهتمام الاستشرافي بتواريخ وأداب وحضارات الشعوب الإسلامية قبل دخولها في الإسلام من أجل العمل على إحياء النزعات القومية لدى هذه الشعوب ، والعودة بها إلى تاريخها السابق على الإسلام ، وإحياء العصبيات القديمة، وإحياء العادات والتقاليد الوثنية القديمة، كما يُشاهد ذلك في الاحتفالات بالمناسبات والأعياد القومية ، والمهرجانات التي تُعقد في هذه المناسبات والتي تعكس أفكاراً غير إسلامية ، وتُمجد أعمالاً وثنية ، وتنشر عادات وتقاليد وثنية قضى عليها الإسلام ، وتشير القوميات والعصبيات التي غُمِّنَ الإسلام من القضايا عليها . وتهدف من العودة إلى التراث الأسطوري السابق على ظهور الإسلام إلى تجسيد أبطال التاريخ القديم، وإحياء أعمالهم بما تحتويه من أفكار خرافية وأساطير عن أعمالهم المخالفة للعادة والتي تخرج بهؤلاء من دائرة البشرية إلى دائرة الألوهية . وكل هذا يزدري بلا شك إلى الإضرار بالمسيرة العقلية للمسلمين ، وتعطل تقدمهم العلمي ، وتدفعهم إلى الإيمان بالخرافات والكرامات والسحر وغير ذلك من الأمور المؤذية إلى التخلف العقلي للمسلمين (٤٠٠) . ولعل هذا يشرح سر الاهتمام الاستشرافي بالتصوف الذي تخصص فيه عدد من أبرز المستشرقين أمثال لويس ماسينيون ، وهنري كوريان ، ونيكلسون : والذين اهتموا بتحقيق الكتب الصوفية ونشرها وترجمتها ، كما اهتموا بالطرق الصوفية المعاصرة وما رسموها ، وركزوا على إبراز تجارب المتصوفة وأعمالهم بما تحتويه من شطحات لا يقبلها العقل السليم ، وما ترويه من كرامات ومعجزات ، وما تدعوه إليه حياتهم من تواكل وإهمال للواجبات

والفرضية الدينية ، وتعطيل الأحكام والتكاليف الشرعية ... وكلها أمور تنحرف بالسلوك الإسلامي وتتنفس لدى المسلم الإيمان بالخرافات والأساطير ، وتشغله عن واقعه الإسلامي بأمور غيبية ، وتفاصيل باطنية ، ورموز غير عقلية : وتبعده عن التفكير العقلاني السليم ، وقتل عنده قيمة العمل الذي تقوم عليه الحياة . وكل هذه آثار سلبية للتصرف حرص الاستشراق على إظهارها ونشرها وتقديمها على أنها قتل الروح الدينية الحقيقة في الإسلام . فالتصوف يمثل عندهم التجربة الدينية الحقيقة عند المسلمين ، أو المعبّر عنها يسمونه بالروحانية الإسلامية . ولعل من أسباب هذا الميل الاستشرافي إلى التصوف إضعاف الروح العلمية عند المسلمين ، واستقطابهم إلى التفكير الصوفي بأساسه غير العقلاني ونتائجها المؤدية إلى تفسيب العقل المسلم وإبعاده عن واقعه وقضايا العصر المعاصرة التي تتطلب البقظة التامة . والوعي السليم ، والإدراك العلمي حتى يتمكن من علاج هذه القضايا والعيش حسب مقتضيات العصر العلمية وفي ظل رعاية الدين ورقابته .

٤- تشجيع الثقافات القومية

عمل الاستشراق على تشجيع الثقافات القومية المؤدية إلى إحياء التراثات القومية لدى الشعوب الإسلامية ، وذلك من خلال التركيز على دراسة الأدب القومي لكل شعب إسلامي على حدة وتشجيع ما يسمى بالأدب الشعبية والإقليمية التي تميل بطبعتها إلى تمجيد أبطال السير الشعبية في كل إقليم إسلامي الأمر الذي ينبع عنه الرفع من شأن الشخصيات التاريخية القومية ، والتركيز على الجوانب القومية في هذه

الشخصيات على حساب الجوانب الإسلامية ، وتوجيه الطاقات الأدبية والفنية لتخليد هذه الشخصيات من خلال كتابة سيرهم في لغة إقليمية وعامة الأمر الذي ساعد على تدهور الذوق الأدبي والفنى ، وانحدار الموضوعات الأدبية والفنية إلى السطحية والابتذال اللغوى والأسلوبى ، وتعطيل الوظيفة الحقيقية للأدب فى لفته الفصحى وهى تشريف الشعب العربية والإسلامية ، ورفع مستواها الفكري ، ودرجة تذوقها الأدبي واللغوى والسمو بأنكارها .

ولاشك فى أن هذا الاهتمام الاستشرافي بالأدب القومية والإقليمية والشعبية فيه تفتت للوحدة اللغوية عند المسلمين ، وهو دور تقوم به اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم التى يستخدمها المسلمون فى كل مكان . فالتركيز على الآداب الشعبية والإقليمية يؤدى بطبيعة الحال إلى تفضيل استخدام اللغات واللهجات المحلية والقومية كلفة للتعبير عن مضمون قومية وشعبية ، وهجر اللغة العربية الفصحى ولغات الشعوب الإسلامية الرئيسية التى يتحدث بها أعداد ضخمة من المسلمين مثل التركية والفارسية والأوردية ، واستخدام لهجات محلية ومضمون موضوعات قومية ومحلية تؤدى فى النهاية إلى إحياء العصبيات وتغريب هذه الموضوعات من مضمونها الدينية والأخلاقية الإسلامية لتعبر عن قيم خاصة بجماعات خاصة منفصلة عن المجتمع الإسلامي الكبير.

ولعل من قبيل تشجيع الثقافات القومية تركيز قطاع من الدراسات الاستشرافية الأدبية على نشر الدواوين الشعرية التى تغطى أغراض المدح والهجاء والفخر والغزل لما لهذه النوعية من الأغراض الشعرية من

دور في نشر القيم السلبية في المجتمع الإسلامي . فهـى بلاشك مثيرة للأحقاد والعصبيات والقوميات التي تمحـج الإسلام في وضع نهاية لها حين وحد المسلمين حول العقيدة . كما يدخل في هذا المجال تشجيع نشر الأعمال التي تتـحدث عن مثالـب الشعوب بهـدف تحـزنة الأمة الإسلامية إلى عدة شعوب متناحـرة متصارـعة تـفخر بـأجنـاسها وأعـمالها في الجـاهـلـية، وـتـحـيـي سـير أـبطـالـها قبل الإسلام ، وـتـخـتـفـل بـأـعـيـادـها الـقـومـيـة ، وـتـفـاخـر على بـعـضـها بـعـضـاـها باـظـهـارـمـحـاـسـنـها وأـمـجـادـها وإـبـراـزـمـاـلـبـغـيرـها . وتـتفـقـ هذه الرـؤـيـةـ الاستـشـارـاقـيـةـ معـ المـحاـوـلـاتـ التـيـ ظـهـرـتـ دـاـخـلـ العـالـمـ الـإـسـلـامـ مـثـلـ بـعـثـ الفـرـعـونـيـةـ فـيـ مـصـرـ ،ـ وـالـكـنـعـانـيـةـ وـالـفـيـنـيـقـيـةـ فـيـ الشـامـ،ـ وـالـآـشـورـيـةـ ،ـ وـالـبـرـيرـيـةـ فـيـ الشـمـالـ الـإـفـرـيقـيـ ،ـ وـالـزـنجـيـةـ فـيـ إـفـرـيقـياـ أـلـغـ .

ولـأـجلـ إـحـيـاـ هـذـهـ الشـقـافـاتـ وـالـزـعـعـاتـ الـقـومـيـةـ اـهـتـمـ الـمـسـتـشـرـقـونـ بـدـرـاسـةـ الـآـدـابـ الـقـديـمـ السـابـقـةـ عـلـىـ إـسـلـامـ ،ـ وـتـوـارـيـخـ شـعـوبـ الشـرـقـ الـأـدـنـىـ الـقـدـيمـ وـحـضـارـتـهـ ،ـ وـالتـنـقـيبـ عـنـ الـأـثـارـ الدـالـلـةـ عـلـىـ هـذـاـ كـلـهـ (٥٦)ـ .ـ كـمـ اـتـجـهـتـ الـدـرـاسـاتـ الـإـسـتـشـرـاقـيـةـ إـلـىـ تـشـجـيعـ درـاسـاتـ الـأـقـلـيـاتـ دـاـخـلـ الـمـجـتمـعـ الـمـسـلـمـ،ـ وـدـفـعـ هـذـهـ الـأـقـلـيـاتـ إـلـىـ الـاـهـتـمـامـ بـشـقـافـاتـهـاـ وـلـهـجـاتـهـاـ الـخـاصـةـ ،ـ وـبـعـثـ لـفـاتـهـاـ الـقـدـيمـةـ .ـ وـمـنـ النـتـائـجـ الـفـعـلـيـةـ لـهـذـاـ إـحـيـاـ الـلـفـةـ الـعـبـرـيـةـ كـلـفـةـ لـلـيـهـودـ فـيـ فـلـسـطـينـ ،ـ وـإـحـيـاءـ السـرـيـانـيـةـ كـلـفـةـ لـلـحـدـيـثـ وـالـكـتـابـةـ بـيـنـ بـقـاـيـاـ السـرـيـانـ فـيـ الـعـرـاقـ وـسـوـرـيـاـ ،ـ وـكـذـلـكـ مـحاـوـلـةـ إـحـيـاـ الـقـبـطـيـةـ بـيـنـ أـقـبـاطـ مـصـرـ .ـ

وبالإضافة إلى هذا كله لا يخفى الاهتمام الاستشرافي بموضوع أدب الشعوبية ، وأدب الفرق الإسلامية ، وشعر النقائض لأن كل هذه الأنواع الأدبية الخاصة تساعد على تقوية التزعزعات القومية ، والاتحرافات الدينية ، والتناحرات الاجتماعية وتؤدي في نهاية المطاف إلى تجزئة المجتمع الإسلامي ، وتفتبيه إلى عدة قوميات وفئات اجتماعية متصارعة . وهي في مجملها وتنوعها تؤدي إلى انحلال المجتمع الإسلامي على المستويات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

الفصل السادس

الآثار السلبية للفكر الاستشرافي في مجال العلوم الإسلامية

لما المستشرقون إلى استخدام عدة وسائل علمية لتشويه الدين الإسلامي وتشكيك المسلمين في عقيدتهم ، وفيما يلى عرض موجز لهذه الوسائل .

١- التشكيك في مصادر العلوم الإسلامية :

فقد ركز المستشرقون في البداية على القرآن الكريم والحديث النبوى باعتبارهما المصدرين الأساسيين للدين الإسلامي ، والنجاح في تشكيك المسلمين في صدقهما معناه في النهاية النجاح في القضاء على الدين الإسلامي . ولهذا اتجهت الدراسات الاستشرافية منذ نشأتها إلى القرآن الكريم مثيرة الشبهات حول مصدره الإلهي واعتبروه من وضع الرسول ﷺ ، وردوا كثيرا ما مادة الوحي الإلهي وموضوعاته إلى مصادر يهودية ونصرانية ، كما حاولوا إثبات وجود صلة للرسول ﷺ بشخصيات يهودية ونصرانية استقى منها الأفكار القرآنية منكرين الوحي القرآني إنكاراً تاماً .

ومن الوسائل العلمية التي استخدمها المستشرقون لتحقيق هذا الهدف - وهو تشويه القرآن الكريم ، والقول بانسانية مصدره وإنكار أنه وحي من عند الله سبحانه وتعالى - اللجوء إلى مناهج النقد الغربية

التي طورت لدراسة النصوص الأدبية فيما يُعرف بنهج النقد التاريخي والأدبي والذي طبّقه علماء الغرب على كتاب «العهد القديم» وكتاب «العهد الجديد» ، وعلى الأعمال الأدبية الكلاسيكية من أجل تحليلها ، ونقدّها ، وعلاج مشاكلها التاريخية والأدبية . وقد فعلوا هذا من منطلق أن «الكتاب المقدس» عند اليهود والنصارى هو أدب عالٍ من وضع الإنسان، ومثل أرقى الانتاج الأدبي للإنسان عبر العصور . وقد نظر إلى هذه الأعمال على أنها أعمال متطرفة ، بمعنى أنها لم تؤلف دفعة واحدة، ولم يكتبها مؤلف واحد : ولكنها مرت بمراحل تطور تاريخية وأدبية تجعلها قابلة للنقد التاريخي والديني والأدبي . وهم في هذا لم يخرجوا على الحقيقة . فهذا «الكتاب المقدس» بعهديه القديم والجديد مر بمراحل تطور في تأليفه ، وجمعه وثبتت نصوصه تصل إلى ما يقرب من ألف عام بالنسبة للتواره وبقية كتب العهد القديم اليهودية ، وتصل إلى أربعة قرون بالنسبة للأنجيل وبقية كتب العهد الجديد النصرانية . وهي بهذا التطور التاريخي تغيرت مضامينها الدينية عبر مراحل التطور ، وتغير بناؤها الأدبي وأصبحت بالفعل مستحقة لإجراء عمليات النقد الأدبي والتاريخي والديني عليها^(٥٧) .

وقد اعتقد المستشرقون خطأً أن ما ينطبق على «الكتاب المقدس» من نقد ينطبق بالضرورة على القرآن الكريم متباھلين الطبيعة المختلفة للوحى القرآني ، ومتناقضين عن حقيقة أن القرآن الكريم لم يمر بمراحل تطور مشابهة لتطور كتب العهد القديم والجديد . وقد ساعد على انتشار هذا الاتجاه الاستشرافي في نقد القرآن الكريم أن عدداً من

المستشرقين كانوا من المؤسسين لعلم «نقد الكتاب المقدس» في الغرب Biblical Criticism ولهم جهودهم البارزة في مجال الدراسات النقدية للعهد القديم والجديد . ومن أهم هؤلاء المستشرقين على الإطلاق المستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤-١٩١٨) الذي يعتبر مؤسس علم «نقد الكتاب المقدس» وهو أيضاً واحد من كبار المتخصصين في الدراسات الإسلامية والعربية . وفلهاوزن صاحب نظرية كبرى عرفت باسمه في مجال نقد «الكتاب المقدس» وهو أيضاً صاحب مدرسة لاتزال إلى الآن لها أتباعها ومربيوها في حقل الدراسات النقدية للعهد القديم والعهد الجديد .

ومن أشهر المستشرقين الذين عاصروا فلهاوزن وعملوا على نشر المنهج النقدي التاريخي في مجال الدراسات القرآنية والحديثية المستشرق اليهودي المعروف أجناس جولدتسهير (١٨٥٠-١٨٢١) ، وله أيضاً «تاريخ النص القرآني» (جورتنجن ١٨٦٠) . وقد أعاد طبعه بعد تحقيقه والتعليق عليه في مجلدين المستشرق فشوالي (١٨٦٣-١٩١٩) في ليبزج (١٩١٩-١٩٠٩) واشترك كل من المستشرق برجشتراسر (١٨٦٦-١٩٣٣) وبريتسل (١٨٩٣-١٩٤١) في نشر الجزء الثالث من «تاريخ النص القرآني» لنولدكه . وقد ألف برجشتراسر «تاريخ قرارات القرآن» (١٩٢٩) و«معجم قراء القرآن وترجمهم» (١٩١٢) ، كما وضع بريتسيل «تاريخ علم قراءة القرآن» . وألف أيضاً «مشروع لاستخدام أسلوب النقد في نشر القرآن» (١٩٣٠) . ووضع المستشرق ه. هيرشفيلد (١٨٥٤-١٩٣٤) كتاب «بحوث جديدة

في ترتيب القرآن وتفسيره»، وألف المستشرق ب. كاله «القرآن والعربية» (١٩٤٨) ، ووضع المستشرق س. فرانكل (١٨٥٥-١٩٩) «الكلمات الأجنبية في القرآن» (ليدن ١٨٧٨) . وقد سار المستشرقون على منهج فلهارن وجولد تسهير في المرحلة الحالية من الاستشراق . ومن أشهر من نفروا هذا المنهج د. بل في كتابه «مدخل إلى القرآن» (أدنبرج ١٩٥٤) وأرثر جفرى في «المفردات الأجنبية في القرآن الكريم»، ور. بلاشير «مدخل إلى القرآن» (باريس ١٩٤٧) .

وقد طبق المستشرقون نفس المنهج النقدي التاريخي في الدراسات المذهبية بهدف إثبات عدم صحة الحديث . وقد غطت دراساتهم جميع مجالات الحديث والمرتبطة بمصطلحاته ، وتطوره ، ووضعه ، ونقاذه ، وتدوينه من وجهة النظر الاستشرافية ، ومن أهم المستشرقين الذين تناولوا تطبيق منهج النقد التاريخي على الحديث النبوي جولد تسهير في كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام» وفي «دراسات محمدية» ، و«مذاهب التفسير الإسلامي»، وكذلك المستشرق جوزيف شاخت في «المدخل إلى الفقه الإسلامي» .

ولا يخفى أن الهدف من كل هذه الدراسات القرآنية والمذهبية عند المستشرقين زعزعة ثقة المسلمين في كتابهم المقدس وفي مصادر شرعيتهم ، وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث النبوي . ويمكن القول بكل تأكيد أن هذه الدراسات النقدية لم تنجع في تحقيق هدفها ولم يكتب لها النجاح الذي شهدته دراسات نقد «الكتاب المقدس» عند اليهود والنصارى ، والتي حددت تحديداً نهائياً الوضع الإنساني لهذه

الكتب ، وحكمت على «الكتاب المقدس» بأنه كتاب إنساني ، وليس إلى المصدر كما ادّعت الدوائر الدينية اليهودية والنصرانية . ويعود الفشل الاستشرافي في الوصول إلى نفس الحكم على القرآن الكريم إلى طبيعة القرآن الكريم المختلفة اختلافاً جذرياً عن طبيعة الكتب اليهودية والنصرانية . ونحن نعتبر هذا الفشل من جانب مدرسة النقد التاريخي وأتباعها من المستشرقين دليلاً يضاف إلى الأدلة الموروثة عن إعجاز القرآن الكريم وإثباتاً علمياً لإلهية مصدره ، والتي تثبتها خصائصه اللغوية والبلاغية ، ووحدته الموضوعية ، ومضمونه الدينية والأخلاقية ، وأياته الكونية ، ومحاتوياته التشريعية والفقهية ، ورؤيته التاريخية والحضارية . وهذه جميعاً صفات نفتها مدرسة النقد التاريخي عن كتب العهد القديم والجديد ولا تتوفّر في كتاب ديني مقدس سوى القرآن الكريم . ويعود هذا الوضع الخاص بالقرآن الكريم أولاً وقبل كل شئ إلى حفظ الله سبحانه وتعالى له من التحريف والتغيير والتبديل الذي أصاب الكتب الأخرى مصداقاً لقوله تعالى : «إنا نحن نُزَّلْنَا الذُّكْرِ وإنما لَهُ مَحْفَظُون»^(٥٨) هذا في الوقت الذي أشار فيه القرآن الكريم نفسه إلى حدوث التحريف والتبديل في الكتب اليهودية والنصرانية كما في قوله تعالى : «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيَسْتَرُوا بِهِ ثُمَّاً قَلِيلًا». فَوَيْلٌ لِّهِمْ مَا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لِّهِمْ مَا يَكْسِبُون»^(٥٩) . وقوله تعالى : «فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قَيْلَ لَهُمْ»^(٦٠) . وكذلك قوله تعالى: «يَعْرِفُونَ الْكَلْمَ عَنْ مَوْاضِعِهِ»^(٦١) . ويقر القرآن الكريم بأن الأصل في وجود الاختلاف هو المصدر الإنساني

وهو أمر ينطبق على كتب اليهود والنصارى. أما الكتاب الإلهى فلا سبيل لوجود الاختلاف فيه. وهو مبدأ قرآنى نقدي أقرته الآية القرآنية الكريمة : «أفلا يتذمرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»^(٦٢).

ويأتى بعد عناية الله وحفظه لكتابه حرص المسلمين على كتابهم الكريم . فقد كانت الآيات القرآنية المذكورة على تحريف بنى إسرائيل والنصارى لكتبهم بشابة تحذير شديد للمسلمين ، وإنذار متكرر من القرآن الكريم حتى لا يقع المسلمون فيما وقع فيه أهل الكتاب . ولذلك بذل المسلمون جهوداً عظيمة فى حفظ آيات القرآن الكريم بعد نزولها على الرسول ﷺ مباشرة وتدوينها . وكان نقله بالتواتر وذلك «بأن يتلقاه الجمع العظيم عن النبي ﷺ ثم ينقله جمع عن هذا الجمع ، وهكذا حتى يصل إلينا كما نطق به النبي ﷺ من غير تحريف ولا تبدل ولا نقص ولا زيادة . والنقل بهذه الطريقة هو السبيل الوحيد لصيانة القرآن وحفظه على الوجه الذى أنزل عليه . وقد كان تلقى الناس له بهذه الكيفية وحفظهم إياه فى صدورهم هو الأصل المحكم عند الاختلاف فى كتابة حرف أو كلمة منه ، وهو طريق حفظه الذى وعد الله به فى كتابه »^(٦٣).

هذا الواقع القرآنى فيما يتعلق بحفظه وتواتره لم يحدث بالنسبة لكتب اليهود والنصارى، هذا بالإضافة إلى أن رجال الدين فى اليهودية والنصرانية استأثروا بنصوص كتبهم ، ولم ينشروها بين الناس مما جعل إمكانية التغيير فيها بواسطة رجال الدين لا يمكن اكتشافها بواسطة جموع اليهود والنصارى الذين لا يطكون نُسخاً من «الكتاب المقدس»

وذلك لتحرير شيوخه واستخدامه خارج دائرة رجال الكهنوت والقساوسة. وإذا حدثت رغبة في التبديل باتفاق رجال الدين فلا يمكن معرفتها بواسطة جمهور اليهود والنصارى.

والحقيقة أن المسلمين فى منتهى اليقظة فيما يتعلق بنص القرآن الكريم خشية أن تتدرب إليه يد التبديل والتغيير وأصبح واجب المسلم قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة سليمة خالية من اللعن والخطأ ، كما أصبح واجبه أيضاً تصحيح خطأ الفير كالماء أو غير ذلك وفي كل مناسبة تُتلى فيها آيات القرآن الكريم .

إن مهمة النقد التاريخي المناسبة لكتب اليهود والنصارى ليست لها قيمة تذكر فيما يتعلق بالقرآن الكريم رغم أهميتها العظمى فى إظهار التحرير والتبديل فى «الكتاب المقدس» اليهودى والنصرانى . فالقرآن الكريم تم حفظه وجمعه وتدوينه فى حياة الرسول ﷺ . ومن هذا المنطلق فالقرآن ليس له تاريخ بالمعنى الذى فهمه علماء «نقد الكتاب المقدس» فى دراستهم للعهد القديم والعهد الجديد حيث مرت نصوص العهدين بمرحلة تاريخية طويلة قبل ثبيت النص . وهى فترة تصل إلى ألف عام بالنسبة للعهد القديم وأربعة قرون بالنسبة للعهد الجديد . وهذا هو المقصود بعبارة «تاريخ النص» عند علماء نقد «الكتاب المقدس» . وهى عبارة من الصعب تطبيقها على نص القرآن الكريم الذى حُفِظَ وجُمِعَ وُدُونَ فى فترة نزوله على الرسول ﷺ . ولم يمر بمراحل تطور وتحريف وتغيير تؤدى إلى ثبيت للنص كما حدث لكتب اليهود والنصارى . وعبارة «تاريخ النص» تعنى المسافة التاريخية الفاصلة بين زمن نزول

النص وزمن تثبيت النص . وفي حالة التوراه مثلاً نجدها نزلت على موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد بمعنى أن تاريخ نص التوراه يغطي ما يقرب من تسعة قرون تقريباً تعرّض فيها النص لكل أشكال التغيير والتبدل والتحريف .

أما بالنسبة للحديث النبوي فقد كان المسلمون على درجة كبيرة من الوعي النقدي إذ أنه بمجرد الإحساس بأن بعض الأحاديث الموضوعة قد تسرّبت إلى جسم الحديث النبوي بدأت أكبر عملية نقدية في تاريخ الفكر الإنساني تم على أثرها إخضاع الحديث لراحل من النقد العلمي للتأكد من صحته وعودته إلى الرسول ﷺ . ولم ينتظّر المسلمين حتى تظهر لهم مدرسة غريبة تُنقد لهم الحديث . فقد بذلوا جهوداً كبيرة لبيان الصعيب من الموضوع ، ونقدوا الحديث سندًا ومتنا ، وطوروا سُبلاً لتنقية الأحاديث التبريرية والمحصل عليها من مصادرها الأصلية كالرحلة في طلب الحديث ، وتَتَبَعُ طرق تحمله وأدائه ، ونتائج عن هذا كله تطور علوم نقدية امتدت لتخدم علوماً أخرى غير الحديث مثل علم التاريخ ، وعلم تاريخ الأديان . ومن أهم هذه العلوم النقدية علم المجرى والتتعديل أو «علم الرجال». بل إن المنهج النقدي الذي طوره علم الحديث عند المسلمين امتدت آثاره إلى المنهج النقدي الغربي حيث استفادت مدرسة «نقد الكتاب المقدس» من النقد القرآني والنقد الإسلامي الذي طوره موزرخو الأديان والفرق لليهودية والنصرانية ، كما استفادت أيضاً من منهج النقد عند المحدثين . وقد ذكرنا سابقاً اشتراك نفر من المستشرقين وعلى رأسهم يوليوس فلهاوزن في تأسيس مدرسة نقد الكتب اليهودية والنصرانية .

٢- التشكيك في أصالة الفكر الإسلامي:

وبالإضافة إلى التشكيك في صحة القرآن الكريم والحديث النبوى بما المستشركون إلى إثارة الشك العام حول مصادر الفكر الإسلامي ، ورد الثقافة الإسلامية إلى مصادر أجنبية يهودية ونصرانية : أو فارسية ، وهندية ، ويونانية ، ورومانية ، وسريانية . ولم يترك المستشركون علمًا من العلوم الإسلامية إلا وردوه إلى مصدر أو عدة مصادر أجنبية . فضلًا عن رد بعض موضوعات القرآن الكريم والحديث النبوى إلى مصادر يهودية ونصرانية بل ورد معتقدات الدين الإسلامي إلى أصول أجنبية مختلفة - عمد المستشركون إلى تشويه الفكر الإسلامي عامة من خلال التشكيك في مصادره الإسلامية والزعم بعودته إلى أصول أجنبية . وفيما يلى وصف سريع لهذه الفربة الاستشرافية من خلال عرض آراء المستشرقيين في أصالة بعض العلوم الإسلامية .

أ- التشكيك في أصالة الشريعة والفقه :

تنطلق الدراسات الاستشرافية في الشريعة والفقه من منطلق أساسى هو عدم الاعتراف باستقلالية الشريعة الإسلامية ، والقول بمصادر أجنبية للشريعة والفقه . وقد مال المستشركون اليهود بالذات إلى ادعاء وجود تأثير تشريعى يهودى على الإسلام ، والأخذ عن التشريعات والأحكام التواريتية . كما يدعى بعض المستشرقيين أصلًا رومانياً للشريعة الإسلامية ، والقول بتأثير هذه الشريعة بالقانون الرومانى وبغيره من القوانين الوضعية . ولاشك فى أن منشأ هذه الشبهات الجهل بالشريعة

الإسلامية ، والخطأ في فهمها ، والأخذ ببدأ تأثير الشائع الأقدم على الشريعة الأحدث في التاريخ ، وبيبدأ التأثير والتاثير وبالفصل بين الدين والدنيا . هذا فضلاً عن الرغبة المقصودة في تشويه الشريعة الإسلامية باعتبارها مناسبة للشائع الآخرى ، وكجزء من عملية التشويه العام للإسلام التي بناها المستشرقون ^(٦٤) . ولأن الشريعة الإسلامية هي الأساس الذي تقوم عليه حياة المجتمع الإسلامي فالتشكيك فيها ومحاولة تشويه مصادرها وأصولها ينعكس على الحياة الإسلامية سلباً : وترتّب بالتأكيد على وحدة الحياة الإسلامية ، كما هو واضح في حياتنا المعاصرة من انقسام المجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات تطبق الشريعة الإسلامية ومجتمعات لا تطبقها الأمر الذي أدى إلى تفتت وحدة المسلمين . ولاشك في أن الاستشراق قد لعب دوراً هاماً في التقليل من شأن الشريعة الإسلامية ، ووصفها بالجمود وعدم الصلاحية ^(٦٥) . وكما أنه مسؤول إلى حد كبير عن انتشار العلمنية في البلاد الإسلامية والوقوع تحت تأثير القوانين الوضعية الفربرية وهو أحد الأهداف الاستشرابية الأساسية ^(٦٦) ، أما دعوى تأثير القانون الروماني على الشريعة الإسلامية فهي تقوم على دعامتين ضعيفتين : الأولى أن القانون السابق في التاريخ يؤثر على القانون اللاحق أو المتأخر ، والثانية أن هناك تشابهًا في بعض الأحكام التشريعية بين القانون الروماني والشريعة الإسلامية .

يعطى د. عبد الحميد متولى عدة أسباب أدت إلى اعتقاد المستشرقين في وقوع التشابه منها اعتقادهم في تقليد الحضارة الأدنى

للحضارة الأعلى في البلاد التي فتحها العرب : ومنها أيضاً الأخذ بالعرف التأثير بالقانون الروماني وغير المتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية ، والاعتقاد الاستشرافي في أن بعض الفقهاء المسلمين تعلم في مدرسة بيروت الرومانية مثل الإمام الشافعى والإمام الأوزاعى ، وقول فريق آخر من المستشرقين بانتقال قواعد القانون الروماني إلى الفقه الإسلامي عن طريق التشريعات اليهودية المتأثرة بالقوانين الرومانية ، ورأى آخر يقول بانتقالها عن طريق مدرسة الإسكندرية بعد الفتح الإسلامي^(٦٧) .

وقد انبرى عدد من العلماء المسلمين للرد على هذه الشبهة . ويمكن تلخيص ردود المسلمين على شبهة التأثير بالقانون الروماني فيما يلى :

- ١- عدم رُقى المتشابه إلى مرتبة القواعد الكلية .
- ٢- إن إقرار بعض العادات ليس من باب التأثير وإنما هو اعتراف باتفاقها مع مبادئ الشريعة الإسلامية^(٦٨) .
- ٣- تأثر القانون الروماني بالتشريعات اليهودية .
- ٤- عدم وجود فقيه مسلم واحد من أصل يهودي .
- ٥- عدم ترجمة كتب في القانون الروماني في عصر الترجمة^(٦٩) .
- ٦- وقوع تأثير إسلامي في القوانين الغربية المستمدّة من القانون الروماني خاصة في القانون التجاري .
- ٧- وجود مبادئ في القانون الروماني ليس لها مقابل في الشريعة مثل السلطة الأبوية ، والسيادة الزوجية ، والوصاية على المرأة ... الخ.

- ٨- وجود مبادئ في الشريعة الإسلامية ليس لها مقابل في القانون الروماني مثل نظام المحببة ، والعقاب بالتعزير ، وعدم فصل القواعد القانونية عن القواعد الأخلاقية ، ونظرية الضرورة ، ونظرية إسامة استعمال الحق ، ومبدأ التزام المتعاقدين بناءً على الرضا أى سلطان الإرادة .
- ٩- عدم وجود أنظمة قانونية رومانية في الشريعة الإسلامية واختلاف لغة الفقه^(٧٠).
- ١٠- اختلاف مصادر القانون فالشريعة مصدرها الوحي والسنّة بينما القانون الروماني مصدره العادات والأعراف مما يؤكد استقلال الشريعة الإسلامية في النشأة والتطور .
- ١١- تفوق الشريعة الإسلامية في عدد من المبادئ منها العدالة ، والمساواة بين الأفراد أمام القانون ، وتمتع المرأة بوضع قانوني مستقل ، ومبدأ سلطان الإرادة ، ومبدأ عدم الفصل بين القواعد القانونية والأخلاقية .
- ١٢- اختلاف الشريعة الإسلامية عن القانون الروماني في العموم حيث تخاطب أحكام الشريعة المكلفين دون الاهتمام بتباين لغتهم وقومياتهم وألوانهم أو أجناسهم ، وتختلف أيضاً في ثبات الأحكام الأساسية ، وفي الصفة الدينية التي لا تتوفر للقانون الروماني ، والاختلاف في الأحكام الخاصة بالعقوبات والأحوال الشخصية والمعاملات والالتزامات^(٧١) .

وبالإضافة إلى شبهة التأثير بالقانون الرومانى لابد من إشارة سريعة إلى شبهة وصف الشريعة بالجمود وعدم الصلاحية وهى شبهة تعتمد على منطق استشرافى خاطئ يعتبر المثالية فى الشريعة الإسلامية ثبات مبادئها ضرورة الجمود وعدم الواقعية وبالتالي عدم الصلاحية للتطبيق .

ويرد الدكتور محمد سليم العوا على هذا الادعاء الاستشرافى فى معرض نقاذه للمستشرق نويل كولسون قائلاً : «الصحيح أن مثالية أحكام الشريعة الإسلامية ، لاتعني عدم صلاحيتها للتطبيق بحال من الأحوال ، والواقع الذى مضى عليه العمل فى العالم الإسلامي كله إلى دخول الاستعمار الغربى بلاد الإسلام ينقض هذه الدعوى ، والعمل الجارى الآن على قدم وساق فى عدد من بلدان الإسلام للحكم بالشريعة الإسلامية ، واصدار قوانين جديدة مستمدة من أحكامها مبنية على مدوناتها الفقهية ، واستمرار العمل بها حتى اليوم فى المملكة العربية السعودية وغيرها من الدول الإسلامية ينقضها كذلك »^(٧٢) . ويؤكد الدكتور العوا على أن المثالية تعنى «نزع الأحكام الشرعية الإسلامية بالإنسان إلى العلو فوق الشهوات والتزوات ، وتحكيم العقل والعدل بدلاً من تحكيم الهوى والفرض وبصف واقعية الأحكام التشريعية الإسلامية بأنها «تبدي في تحقيق مصالح الناس ورفع المحرج عنهم ، وعدم تكليفهم بما لا يطبقون من الواجبات أو الأعمال . وقد تجلت هذه الواقعية في عشرات القواعد الفقهية بل مئاتها بما لا يبدع مجالاً في إطار البحث العلمي المحايد لرمي هذا الفقه أو هذه الشريعة بعدم الواقعية التي تسارى عند أصحاب هذه التهمة عدم الصلاحية للتطبيق»^(٧٣) .

بـ التشكك فى أصالة النحو العربى :

رد بعض المستشرقين النحو العربى إلى أصول يونانية أو سريانية أو هندية أو لاتينية ، فقد قال بالتأثير اليونانى على النحو العربى كل من المستشرق الفرنسي إرنست رينان E. Renan والمستشرق الألمانى هوفمان G. Hoffmann و أميركس Merx والمستشرق الهولندي فيرستيج C. Versteegh ومن هؤلاء من قال بتأثير يونانى مباشر مثل نولدكه وفيرستيج وبعضهم قال بتأثير يونانى عن طريق اللغة السريانية . وقد ادعى ف بريتوريوس Praetorius وجود تأثير يونانى لاتينى مشترك على النحو العربى . وقد اعتمد هذا الفريق المنادى بالتأثير الأجنبى على النحو العربى على فرضيات لا دليل عليها منها محاولة خلق علاقة تاريخية بين النحاة العرب والنحاة السريان مثل علاقة مفترضة بين أبي الأسود الدولى ويعقوب الراهاوى وافتراض علاقة بين حنين بن إسحاق والخليل بن أحمد . كما افترضوا دوراً للفرس فى نقل المعرفة اليونانية إلى العرب مثل افتراض معرفة عبدالله بن المفعى باليونانية ، وتأثيره فى الخليل بن أحمد . ومن هذه الفرضيات أن مصطلحات الإعراب ، والصرف ، والقياس والحركة مصطلحات يونانية : وأن تقسيم الكلام عند سيبويه تقسيم يونانى . وفي كل هذا يتجاهل المستشرقون ارتباط ظهور النحو بالقرآن الكريم كأحد العلوم التى نشأت عن القرآن الكريم ولضرورة إسلامية خالصة، ولأسباب وظروف داخلية . كما يتجاهل المستشرقون الآراء الواردة فى المصادر العربية فى تاريخ النحو والتى تُقر بنشأته الداخلية . وقد ظهر من بين المستشرقين من اعترف بأصالة النحو

العربي، وأن صلته بالنحو اليوناني أو السريانى صلة متأخرة بعيدة عن فترة النشأة والتكون ، وهو جزء من تأثير عام على الثقافة الإسلامية حدث بعد عصر الترجمة عن علوم اليونان والسريان في العصر العباسي.

ومن هؤلاء المستشرق الفرنسي أو تروبو O. Troupeau الذي رفض التأثير المبكر لأنّه مبني على فروض تاريخية غير واقعية ومعتمد على تسلسل تاريخي مرفوض ببرود النحو بمرحلة يونانية وسريانية فمرحلة عربية، وأن التأثير اليوناني لا يتعذر استعارة بعض المصطلحات ، ورمى القائلين بالتأثير اليوناني بالتعصب العام للثقافة اليونانية ، ورد كل العلوم إليها ، وإنكار فضل الحضارات الأخرى خاصة الحضارات الشرقية القديمة ، والحضارة الإسلامية . وهو يرفض وقوع أي اتصال بين النحاة العرب والسريان قبل حركة الترجمة حيث لا يرد ذكر نحوئ سريانى واحد في الأخبار التاريخية النحوية العربية . كما أن المصادر العربية لاتشير إلى أي مؤثرات أجنبية فضلاً عن الإشارات الواردة عن كراهية النحاة العرب للمنطق اليوناني مثل تفرقة الزجاج بين طرق النحاة وطرق المناطقة، واتهام الرمانى النحوى بادخال أفكار فلسفية في النحو ، والفراء بفلسفة نحوه وهجوم السيرافى على المناطقة^(٢٥) . ولم يكتفى تروبو بهذه الأدلة التاريخية بل أكد على اختلاف طبيعة المصطلحات النحوية العربية والمصطلحات اليونانية . وتطور نظرية الأصل الفقهي لمصطلحات النحو العربي مشيراً إلى الاتصالات المستمرة بين النحاة والفقها ، ومعطياً أمثلة لنحاة تعلمذوا على فقهاء ، ونحاة متتمكنين في الفقه والشريعة والحديث مثل عيسى بن عمر ، ونصر بن عاصم، ويحيى

بن يعمر ، وحماد بن سلمة ، والنصر بن شمبل الذى عمل قاضياً فجمع بين علمي النحو والفقه . وأكَد ترويُّور على ضرورة دراسة الخلفية الثقافية للنحاة العرب للتعرف على مصادر نحوهم^(٧٦) . وقد أعطى ترويُّور مجموعة مصطلحات نحوية مأخوذة عن الفقه الإسلامي مثل : بدل ، عوض ، شرط ، كلام ، حد ، حجة ، أصل ، دليل ، نية ، منزلة ، موضع ، قياس ، حسن ، قبيح . ويصفها بأنها مصطلحات وظيفية أى لها وظيفة داخل الكلام مما يشير إلى تأثير فقهي^(٧٧) .

ج- التشكيك في أصالة الأدب العربي

وفي مجال الأدب العربي، شكك المستشرقون في أصالة الأدب «الماهلي» وصحته من خلال نظرية الانتهال التي طورها عدد من المستشرقين من أهمهم تبودور نولدكه في بحث له بعنوان «من تاريخ نقد الشعر العربي القديم»^(٧٨) ويزعم فيه أن الإنتاج المبكر من الشعر العربي القديم يُظهر في جوهره الأشكال الخارجية والداخلية التي يعكسها شعر صدر الإسلام حيث يوجد تشابه في البنية الفنية للقصيدة العربية بين القصيدة العربية القديمة والقصيدة العربية في صدر الإسلام . كما يزعم أن هناك تشابهاً في الموضوعات المكونة لضمون القصائد بحيث يمكن رد القصائد الجاهلية من حيث الوضع والتأليف إلى عصر صدر الإسلام بمعنى أن الشعراء الإسلاميين وضعوا قصائدهم على لسان الشعراء الجاهليين لينالوا القبول ويسعدوا لقصائدهم الانتشار . ويزعم نولدكه أيضاً أن قصائد عربية كثيرة وُضعت على الشكل الجاهلي للقصيدة لاستخدامها في أغراض مختلفة مثل الوعظ والمحاورة

والغخر، وأن شرعاً كثيراً أضيف إلى قصائد قديمة على وزنها ويعرها مما يشير الشك حول صحتها و يجعل من الصعب توثيقها . ومن مزاعم نولدكه أن المعلقات السبع ما هي إلا خرافات وليس لها وجود حقيقي والتسمية «معلقات» تسمية متأخرة ويشير الشك في القصائد ذاتها وفي أسمائها وشعرانها^(٧٩). ومن مزاعمه أيضاً الادعاء بأنه لا يوجد بيت شعرى واحد موثوق فى صحته قبل عام ٥٠٠ ميلادية .

وقد سار على نهج نولدكه ونظريته هذه عدد من المستشرقين مثل المستشرق الوارد Ahlwardt W. فى بحثه «ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة» حيث يربط فيه بين الخبر الأدبي والخبر التاريخي ويزعم أن الموقف من الشعر العربي القديم ما هو إلا جزء من الموقف من التاريخ العربي القديم كله . فكما أنه من الصعب عنده توثيق أخبار العرب قبل الإسلام وإعطاء تصور تاريخي عن حياة العرب في الجاهلية فالامر كذلك ينطبق على الشعر الجاهلي من حيث تأليفه ونسبته إلى ناظمه ، ويشكك الوارد كذلك في صحة الأنساب الواردة في المصادر العربية القديمة^(٨٠).

وال نقط المستشرق صموئيل مرجولبيوث النظرية من زاوية التدوين فيدعى أن وسيلة العرب في تدوين شعرهم وسيلة بدائية تسمح بتسرب ودخول الاتصال . فالعرب لم يعتمدوا على الكتابة في تدوين الشعر بل اعتمدوا على الذاكرة والحفظ ، ويشكك في قيمة الحفظ وفي الرواية الشفهية ويعتبرها وسيلة غير دقيقة للتدوين ، ويرد إليها كل الأخلاقيات الخاصة برواية الشعر العربي القديم ، كما أنه شكك في

الرواة عامة ، ووصفهم بعدم الدقة ، وإدخال تغييرات على القصيدة العربية . ويزعم مرجوليوث أيضاً صعوبة تصور وجود لغة مشتركة للعرب قبل الإسلام يدون بها الشعر العربي القديم . فالعرب اختلفوا في لهجاتهم ومع ذلك فقد أتى شعرهم في لغة واحدة وهذا يعني أن هذا الشعر تم وضعه بعد الإسلام . ويشير مسألة الاتصال متخذًا من مسألة اللغة الواحدة للشعر أساساً للنظرية . ويربط بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم ، ويعطى على هذا الأساس تاريخاً متأخراً للشعر الجاهلي ، كما يعتبر المضمن في الشعر الجاهلي لا يعبر عن الحياة القديمة بل يعبر عن عصر متأخر طابعه إسلامي^(٨١) .

وقد أثرت نظرية الاتصال كما طورها مرجوليوث على عدد من المتخصصين العرب في الأدب العربي القديم . وينتمي معظمهم إلى المدرسة العربية النصرانية التي يتزعمها عدد من علماء النصارى العرب وأدبائهم مثل جورجى زيدان ، ولويس شبخو ، وأنطون فريحة ، وأنستاس الكرملى ، وفيليب حتى ، ولويس عوض وغيرهم . كما تبناها بعض علماء الأدب من العرب المسلمين ومن أبرزهم طه حسين الذي اهتم بتطبيق النظرية وشرحها في عمله المعروف «في الشعر الجاهلي - ١٩٢٦» . وقد تبنت هذه المدرسة العربية الرؤية الاستشرافية للأدب العربي القديم مرددة نفس أدلة المستشرقين السابقة ، ومفلحة هذا كله في غلاف منهجي مستورد من الفكر الاستشرافي ، وفي ظل رؤية متأثرة بالاستشراق ونظرياته . ولاشك في أن أهداف هذه المدرسة العربية التقت وأهداف الاستشراق ، بل وساعدت كثيراً في نشر الفكر الاستشرافي

ونظرياته خاصة فيما يتعلق بمسألة التشكيك في التراث العربي القديم ، وإثارة الشبهات حول أصالتته ، وربط هذا كلها بعملية التشكيك في التاريخ العربي القديم ومصادره الأساسية وعلى قمتها الشعر العربي القديم مصدر اعزاز العرب وفخرهم ودبوانهم ، والمصدر الأساسي لحياتهم قبل الإسلام . كما يرتبط التشكيك في أصالة الشعر العربي القديم بشبهة استشراقية أعظم وأخطر ، وهي وصف العقلية العربية قبل الإسلام بالجمود والتغلُّف وعدم القدرة على التخييل والإبداع . وهي النظرية التي وضعها المستشرق الفرنسي إرنست رينان . والأخذ بالاتحالف معناه الحكم على العقلية العربية بأنها عقلية خاوية لم تنتج أدبياً أو فكرياً يدل عليها بهدف تشويه صورة هذه العقلية ، ورد إنتاجها الأدبي إلى عصور متأخرة أو نسبة جزء منه إلى يهود ونصارى شبه الجزيرة العربية ، كما فعلت المدرسة اليهودية والنصرانية في الاستشراق ، وكما فعل علماء النصارى العرب وأدباؤهم من خلال إبراز النتاج اليهودي النصراني على حساب النتاج الأدبي العربي الأصيل .

د. التشكيك في قدرة اللغة العربية في العصر الحديث :

لم يتوقف المستشركون في هجومهم على اللغة العربية عند الشبهات التي أثارها حول أصالتها في التاريخ القديم وعصور العربية المختلفة ، ولكنهم اتهموا العربية في العصر الحديث بأنها لغة عاجزة عن الرفاء بمتطلبات العصر الحديث وغير قادرة على مواكبة التقدم العلمي والتكنولوجي ، ووصل بعضهم الأمر إلى اعتبار اللغة العربية لغة ميتة مثل اللغة اللاتينية بالنسبة للغات الأوروبية الحديثة . وبأنها لغة

دينية بمعنى أنها تستخدم في المجال الديني وفيما يتعلق بالعبادة ولكنها لا تصلح كلفة للحديث والكتابة تشبيهاً لها ببعض اللغات الدينية القديمة والتي انحصر مجال استخدامها في المجال الديني ، ولم يعد لها استخدام في الحياة اليومية مثل السريانية والنسكريتية وغيرها .

ووصف المستشرقون اللغة العربية بالجمود وأنها لغة بدوية لا تصلح للتعبير عن المصطلح العلمي الحديث ، وأنها السبب في التخلف العلمي للعرب في العصر الحالي كما أنها السبب في التخلف الحضاري لأنها غير قادرة على استيعاب ألفاظ الحضارة الحديثة . ويقابل هذا النم في اللغة العربية الفصحى الثناء على اللغة العامية وعلى اللهجات العربية المختلفة ، ووصفها جميعاً بالمرونة والسهولة والقدرة على التعبير عن المطالب الحديثة ، ومدحوها كوسيلة تثقيف للجماهير العربية وللتخلص من الأمية المنتشرة بسبب صعوبة اللغة العربية الفصحى (٨٢) .
وبالإضافة إلى هذا كله اتهم المستشرقون الخط العربي بالصعوبة وعدم الصلاحية لاستقبال رموز ومصطلحات العلم الحديث ، واقتربوا علاجاً لهذه المشكلة بضرورة التخلص من الخط العربي والأخذ بالخط اللاتيني وترك الأبجدية العربية (٨٣) .

وتتجاهل الدراسات الاستشرافية المعاصرة في أحكامها هذه على اللغة العربية التاريخي العلمي الطويل والمزدهر للغة العربية منذ ظهور الإسلام وحتى العصر الحديث . فتهمة الجمود لم تعرفها اللغة العربية فقد ظلت لغة التعبير العلمي في الحضارة الإسلامية باختلاف عصورها ، ولم يتوقف استخدامها كلغة علمية ، بل لقد حققت مكانة علمية لم

تصل إليها لغة إنسانية أخرى في التاريخ القديم والوسطى إلى أن أصبحت لغة العلم الوحيدة خلال العصور الوسطى^(٨٤)؛ الأمر الذي أجبر مستشرقى تلك الفترة على تعلمها من أجل اكتساب المعرفة العلمية التي استوعبها ونقل هذه المعرفة إلى لغاتهم الأوروبية وهو وضع وصل باللغة العربية إلى العالمية. ويعکن تشبيه هذا الوضع آنذاك بوضع اللغة الإنجليزية في العصر الحديث كلغة علم عالمية. واللغة العربية بريئة من تهمة الجمود والتخلّف التي ألحقها بها المستشرقون. والعجز العلمي الذي يعاني منه العرب في العصر الحالي ليس سببه اللغة في حد ذاتها، ولكنه يعود إلى فشل المحدثين بها في تطريعها ، وتطويرها للتعبير عن العلم الحديث . وهو عجز يُنسب إلى المتخصصين في اللغة والمؤسسات العلمية المسئولة عنها . ومع ذلك فهناك جهود علمية واضحة في مجال تعریب العلوم الحديثة ، وتطوير المصطلح العلمي يظهر فيما صدر عن المجامع اللغوية العربية من معاجم للتخصصات العلمية المختلفة ، كما يلاحظ النجاح في تدريس هذه التخصصات باللغة العربية في كثير من الجامعات العربية. صحيح أن المجهود المبذول مجهود بطيء نسبياً ، ولا يتناسب مع حركة تطور العلم الحديث ، ومع التطور التكنولوجي الهائل الذي يشهده عالمنا المعاصر . ولابد من تضافر المجهود وتنسيقها في هذا المجال من أجل ملاحتة هذا التصور ، وعدم التخلف عن ركب العلم الحديث خاصة وأننا على مشارف القرن الحادى والعشرين ، والذى سيشهد ثورة علمية شاملة كما تشير القرآن إلى أن العالم فى طريقه إلى استخدام نظم علمية جديدة ، ووسائل

علمية أكثر تطوراً بينما لايزال يعيش عالمنا العربي والإسلامي على الأنظمة العلمية القديمة بوسائلها التقليدية .

ولاشك في أن الغرب قد تسبب أساساً في تخلف العرب والمسلمين في المجال العلمي وذلك من خلال استعماره للعالم العربي والإسلامي وتحكمه في وسائل التربية والتعليم، واحتقاره لтехнологيا العلم الحديث، ومنعه وصول التقنية الحديثة إلى العرب والمسلمين، فقد كانت نظرة الغرب إلى العلم ولازال نظرة استعمارية احتكارية اقتصادية هدفها تحقيق مصلحة الإنسان الغربي وسعادته في مقابل هلاك الإنسان الشرقي عامه ، واستغلال طاقاته وامكانيات بلاده للرفع من شأن العلمي للغرب على حساب الشرق. والغرب هو المسؤول مستنolie مباشرة عن التخلف العلمي لشعوب الشرق لاحتقاره المعرفة العلمية . والواجب على الشعوب العربية والإسلامية خاصة أن تبذل الجهد العلمية المطلوبة لتابعة التطور العلمي ، ونقل العلم الحديث إلى اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية . وهي جميعاً لغات صالحة لاستقبال العلم الحديث واستيعابه كما ثبت من تاريخها العلمي في الماضي .

هـ- التشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية :

من الآثار السلبية للاستشراق تشكيكه في قيمة الحضارة الإسلامية وفي أصالتها وإنكاره لفضلها على الحضارة الغربية . فقد اتجه بعض المستشرقين إلى إثارة الشبهات حول المنجزات الحضارية الإسلامية . ولأن هذه المنجزات حقيقة لا يمكن إنكارها لم يعد بعض المستشرقين الماقدين

على الإسلام والمسلمين سوى التشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية ورد منجزاتها إلى مصادر أجنبية ، وللتفرقة بين المسلمين يردون معظم هذه المنجزات إلى المسلمين غير العرب بهدف التقليل من شأن الدور العربي في بناء الحضارة الإسلامية من ناحية ، وإثارة الصراع الحضاري والنزاعات القومية بين المسلمين .

وبالنسبة للتشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية فقد عكف فريق من المستشرقين على دراسة علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى ، والخروج بنتائج غير موضوعية ترد عناصر الحضارة الإسلامية ومنجزاتها إلى عدة شعوب وحضارات من بينها الحضارات الهندية ، واليونانية ، والسريانية ، بالإضافة إلى الحضارة الفربية الحديثة . ويتخاذ هؤلاء المستشرقون من حركة الترجمة الإسلامية في العصر العباسي كدليل على اعتماد المسلمين على غيرهم وأنهم كانوا مجرد نقلة أو مترجمين للفكر العلمي عند الهند واليونان والسريان .

وتقوم هذه الشبهة الاستشرافية على مغالطة واضحة . فالشعوب تعتمد على بعضها البعض في الجانب المادي من الحضارة . وال المسلمين عندما اعتمدوا على علوم اليونان والهند وعلى التراث الحضاري المادي للشعوب الأخرى إما فعلوا ما فعله غيرهم في الماضي قبل الإسلام ، وما فعله الأوروبيون أنفسهم في العصر الحديث . فالحضارة اليونانية القديمة استمدت العديد من جوانبها المادية من بلاد الشرق القديم وبخاصة مصر وبلاد النهرين والهند . والحضارة الفربية الحديثة اعتمدت هي الأخرى على علوم المسلمين فقاموا بترجمتها إلى اللاتينية ، وبنوا نهضتهم

ال الحديثة على أساس من النجزات العلمية لل المسلمين . والحقيقة الأخرى التي يتجاهلها المستشركون هي أن دور المسلمين الحضاري لم يتوقف عند النقل والترجمة عن اليونان والهند والسريان . فقد قام المسلمين بتحقيق التراث العلمي البوناني والهندي وضبطه ، وتفسيره وشرحه ، وتصحيحه ، بالإضافة إليه إلى أن تمكن المسلمين من استيعاب هذه العلوم وتطوير العلوم الإسلامية التي كَوَّنت الحضارة الإسلامية ، وجعلت منها الحضارة العالمية في العصر الوسيط ، وجعلت من اللغة العربية لغة العلم^(٨٦) .

وقد عمد بعض المستشرقيين الذين يزورون لتاريخ العلم إلى تجاهل المرحلة الإسلامية في تاريخ العلوم . فنجدهم يقفزون من المرحلة اليونانية إلى المرحلة الأوروبية غير معتبرين بوجود مرحلة وسط بين المرحلتين ، وبدونها لا يمكن تصور قيام الحضارة الغربية الحديثة ألا وهي المرحلة الإسلامية : وحتى يبدو تاريخ العلم وكأنه تاريخ غربي خالص تعصباً للإنسان الغربي وللحضارة الغربية مع ملاحظة إنكار وجود مرحلة علمية سابقة على المرحلة اليونانية ، وهي المرحلة الشرقية التي ساهمت فيها شعوب الشرق الأدنى القديم في وضع أسس العلوم التي نقلها اليونان وبنى عليها حضارتها . ويجب أن نلاحظ هنا أن تاريخ العلم لم يكن حكراً لشعب بعينه ، وأن الحضارة المادية هي من نتاج البشرية بأكملها .

ويتجاهل المستشركون أيضاً تفوق الحضارة الإسلامية ليس فقط في جانبها المادي ولكن أيضاً في جانبها القيمي : ونقصد به ما وضعته الحضارة الإسلامية من قيم وضوابط للتحكم في النجزات المادية

للحضارة . وهى أمور لم تعرفها الحضارة الغربية بسبب نشأتها وتطورها فى ظل العداء للدين ما جعلها حضارة مادية خالصة لا ترتبط بقيم دينية أو أخلاقية . وقد كان لارتباط الحضارة الإسلامية بالدين الإسلامي الفضل فى انتصاف الحضارة الإسلامية بالعديد من الخصائص التى لم تتوفر فى الحضارات الأخرى ، وبخاصة الحضارة الغربية . فالحضارة الإسلامية حضارة دينية إنسانية عالمية عقلانية أخلاقية^{٨٧} : وهى جميعاً صفات اكتسبتها من طبيعة الدين الإسلامي وهو الدين الإلهى المصدر ، العالى الاتجاه . والإنسانى التوجه ، والذى لا يتعارض مع العقل السليم ، والأخلاقي التزعة .

أما الشبهة الاستشرافية التى ترد الفضل فى الحضارة الإسلامية إلى غير العرب من المسلمين فانها شبهة تهدف إلى تحجزة العالم الإسلامي وحضارته إلى عالم عربى وعالم غير عربى ، وإلى حضارة عربية وأخرى إسلامية غير عربية . كما تهدف الشبهة إلى التقليل من الشأن الحضارى للعرب ، وإثارة الأحقاد بين المسلم العربى والمسلم غير العربى .

وللرد على هذه الشبهة نقول إن مصدر الحضارة الإسلامية - كما ذكرنا - هو الدين الإسلامي . ولذلك فمنجزات الحضارة الإسلامية لاتناسب - ولا يجب أن تنسب - إلى شعب مسلم دون غيره خاصة وأن الاستشراف يسعى إلى تأكيد الاختلاف الحضارى بين المسلمين من خلال دعوى تنوع الحضارة الإسلامية إلى الحد الذى يمكن معه عزل حضارة كل شعب مسلم عن حضارة الشعوب الإسلامية الأخرى . وهى دعوى حادة لتأكيد القوميات وإثارة الصراعات على المستوى الحضارى بين الشعوب

الإسلامية . فالحضارة الإسلامية واحدة ، ومصدرها واحد ، ولا يمكن تجزئتها إلى عدة حضارات متباعدة . ومبداً الأخوة الإسلامية والأمة الإسلامية الواحدة يجعل الفضل في منجزات الحضارة الإسلامية يُنْسَب إلى الإنسان المسلم عامة ، وبهدف إلى تحقيق سعادة الأمة الإسلامية عامة في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ولم يحدث أن احتكر شعب مسلم منجزاً حضارياً ومنعه عن بقية المسلمين . فسياسة احتكار المنجزات الحضارية ومنعها عن الآخرين سياسة غريبة لم تعرفها الحضارة الإسلامية في تاريخها الطويل . ونذكر أصحاب هذه الشبهة من المستشرقين أن الفضل في الإسلام وحضارته يقوم على أساس من التقوى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعورياً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير »^(٨٨) وأن هدف الإسلام إقامة حضارة إنسانية عالمية ولم يكن هدفه أبداً إقامة حضارة على أساس عرقية عربية ، أو غير عربية فالإسلام ليس - كما يدعى المستشرقون - ديناً عربياً ، وكذلك حضارته منسوبة إلى المسلمين جميعاً وليس منسوبة إلى شعب مسلم دون غيره .

وأخيراً نرى في الدليل الاستشرافي على أن الحضارة الإسلامية من صنع المسلمين غير العرب حجة على المستشرقين أنفسهم فإسهام غير العرب من المسلمين في بناء الحضارة الإسلامية يُعد من مآثر الإسلام كدين ، وهو دليل قوى على أن حضارة الإسلام احتوت المسلمين جميعاً في بوتقة واحدة ، وجعلت منهم أمة واحدة . وفي ذلك أيضاً ردًّا على شبهة استشرافية أخرى وهي شبهة انتشار الإسلام بعد السيف ، فلو

كان الأمر كذلك ما حدث هنا الاندماج الشام والتعمق الحضاري الذي مكن غير العرب من المسلمين من تحقيق هذه المنجزات الحضارية ، والإسهام بفعالية في بناء الحضارة الإسلامية . وفي هذا أيضاً يتجاهل المستشرقون حقيقة هامة وهي أن عدد المسلمين من غير العرب قد يصل إلى عشرة أضعاف عدد المسلمين العرب . ولذلك فمن الطبيعي أن تكون المشاركة الحضارية للMuslimين غير العرب والمنجزات الناجحة عنها أكبر بكثير من حجم المشاركة العربية في بناء الحضارة الإسلامية مع التأكيد في نفس الوقت على أن الناتج الحضاري منسوب إلى المسلمين جميعاً .

الفصل السابع

الآثار الفكرية الإيجابية للاستشراق

لاشك فى أن معظم الآثار الفكرية للاستشراق فى المجتمعات الإسلامية آثار سلبية جعلت المسلمين ينظرون إلى الاستشراق على أنه يمثل حركة فكرية غريبة مضادة للإسلام وللمجتمعات الإسلامية . وهى نظرة حقيقة مبنية على أساس حقيقى من تاريخ ارتباط الاستشراق بالاستعمار والتنصير ، واستغلاله من قِبَل هاتين القوتين لتحقيق الأهداف الاستعمارية والتنصيرية فى المجتمعات الإسلامية .

وأعتقد أنه مع زوال الاستعمار فى شكله التقليدى ، ومع استقلال الاستشراق عن التنصير - حيث أصبحت للتنصير ممزئاته ومراكمه الخاصة به وارتباطه العضوية بالكتيبة - يمكن أن تكون تصوراً أكثر موضوعية تجاه الاستشراق . ولازنعم هنا أن الاستشراق قد تخلى تماماً عن الأهداف السياسية والدينية ، ولكنه في حالات استقلاله عن الارتباط بالدولة والكتيبة يمكن أن نرى فيه بعض الجوانب الإيجابية التي أفادت المسلمين دون قصد : أى دون أن يكون تحقيق الفائدة الإسلامية من مقاصد الاستشراق أصلاً . ولتكوين صورة إيجابية عن الاستشراق لابد من إجراء عدة عمليات فكرية على الظاهرة الاستشرافية من أهمها :

- ١- عزل الاستشراق عن القوتين المستغلتين له وهما الاستعمار والتنصير .

- ٢- توسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق لأنها نظرية جزئية لا تختفي الاستشراق في شموليته ولكنها تنظر إليه في إطار ضيق محدود بالتراث الاستشرافي في الدراسات العربية والإسلامية .
- ٣- النظر إلى تأثير الاستشراق في الفكر الغربي وهو جانب مهمّ في دراسات المسلمين عن الاستشراق ويشمل عنصراً إيجابياً بالنسبة لوقف المسلمين من التراث الفكري الغربي .
- ٤- تأثير الإسلام في المستشرقين :

١- عزل الاستشراق عن الاستعمار والتنصير :

وبالنسبة للعملية الأولى وهي عزل الفكر الاستشرافي عن الرؤية الاستعمارية والتنصيرية المستغلة له عبر العصور فهى تركتنا مع كم هائل من الانتاج الفكري للمستشرقين ، وتراث استشرافي ضخم من المعرفة الإسلامية ، منها ما يغلب عليه الجانب الوصفي ، ومنها ما يغلب عليه الجانب القيمي المفعم بالأحكام الاستشرافية على الفكر الإسلامي ، ومنها أيضاً ما يختلط فيه الوصف بالحكم والتقييم . ومن الواجب علينا إسلامياً أن نهتم بهذه الجوانب المختلفة ونستفيد منهافائدة علمية التي تزيد من معرفتنا بالفكر الإسلامي . فالجانب الوصفي في الدراسات الاستشرافية أقرب ما يكون إلى الموضوعية العلمية ، ويزخر بالمعلومات التي تكشف الضوء عن العديد من مجالات الفكر الإسلامي توصل إليها المستشرقون من خلال مناهج ووسائل علمية ربما لم تكن متاحة للعلماء المسلمين في القرون الثلاثة الأخيرة بسبب التخلف العلمي

العام الذى تسبب فيه الاستعمار . أما الأعمال الاستشرافية التى غالب عليها إصدار الأحكام على الفكر الإسلامى فهى من ناحية تحتوى على جانب وصفى يقدم به المستشرق الموضوع المدروس قبل أن يقيمه ويحكم عليه . وتحتوى من ناحية أخرى على أحكام بعضها علمى ، وأغلبها غير موضوعى تظهر فيه رغبة المستشرق فى التشويه ، وإثارة الشبهات ، والتشكيك وغير ذلك من الأهداف الاستشرافية ، ومن بينها الهدف الدافعى عن المعتقد يهودياً كان أو نصرانياً ، وعن المذهب الذى يمثل خلفية المستشرق . وبالنسبة لهذه النوعية من الأعمال فالواجب تجاهها ينحصر فى جانبين : الأول عزل المادة الوصفية والاستفادة منها ، والردد عليها وتقديم التصور الإسلامى السليم لها . وهى عملية تأصيلية يقوم بها العالم المسلم فيচصح الشبهات والمعلومات الخاطئة من خلال مقابلتها بالأصول الإسلامية فى مصادرها الصحيحة الموثوقة ، وحصر أخطاء المستشرق المقصود منها وغير المقصود .

٢- توسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق

وفيما يتعلق بتوسيع دائرة النظرة الإسلامية للاستشراق حتى نتمكن من التعرف على بعض إيجابياته المهمة أو غير المعروفة ، فنقصد بها فى المقام الأول أن نظرة المسلمين إلى الاستشراق نظرية جزئية لاترى الاستشراق فى شموليته كحركة فكرية غربية عامة مهتمة بالشرق ككل ، وليس بالشرق المسلم فقط . وتقييم العمل الاستشرافي من جانبنا كمسلمين يجب أن يتم فى ضوء المعالجة الشاملة للفكر الاستشرافي . بل ويجب أن ننتقصى وندرس موقف الشعوب الشرقية غير الإسلامية من

دراسات المستشرقين لستفيد منها في تكوين موقف إسلامي. ولا يخفى على الدارسين أن حجم الأعمال الاستشرافية المرتبطة بشعوب الشرق غير الإسلامية كالهند والصين والبابان وافريقيا يعتبر أضعاف ما كتبه المستشرقون عن الشعوب الإسلامية وفي هذه المعرفة الاستشرافية بالشعوب الشرقية غير الإسلامية فوائد عظيمة للمسلمين . فهذه الشعوب المجاورة للعالم الإسلامي في شرقه وجنوبه وشماله تهم العالم الإسلامي فهي مجاله الدعوي ، وامتداده الطبيعي ، وسوقه الاقتصادي، وساحتها الفكرية الحقيقة. وأهمية هذا الجزء من العالم الشرقي للمسلمين تفرق براحل أهميته بالنسبة للغرب. وقد وقف العالم الإسلامي طوال تاريخه كعاجز دون امتداد النفوذ الغربي إلى هذا الشرق غير المسلمين إذ كان على الغرب أن يعبر الأرض المسلمة لكي يصل إلى الشرق الأقصى. ولم يتسكن الغرب من ذلك إلا في التاريخ الحديث مع ضعف المسلمين ووقعهم هم أنفسهم تحت السيطرة الاستعمارية الغربية .

ورغم هذه الأهمية فإن المسلمين لم يهتموا كثيراً - خاصة في تاريخهم الحديث - بدراسة هذه الشعوب الشرقية غير المسلمة. ومعرفة أوضاعها الدينية ، والفكرية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية للاستفادة من هذا كله في تحقيق الأهداف الإسلامية في هذه المناطق . وما لا شك فيه أن الاستشراق قد سدَّ هذا الفراغ العلمي بتغطية علمية شاملة ، ودراسة مستفيضة ل بتاريخ وجغرافية الشرق الأقصى وافريقيا ، وللغات هذه المناطق وحضاراتها ، ودياناتها ، وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ويمكن الاستفادة إسلامياً من هذه

المعرفة التي قدمها الاستشراق عن هذه الشعوب في تحقيق مصالح المسلمين . وهذا النوع من المعرفة مهم بالنسبة للداعية المسلم الذي يجب عليه معرفة أحوال من يدعوهم إلى الإسلام وأوضاعهم الدينية والاجتماعية حتى يتمكن من دعوتهم على أساس علمية واضحة . وتهمنه أيضاً معرفة لغاتهم وتاريخهم وجغرافية بلادهم ، وغير ذلك من المعلومات الضرورية للداعية . كما أن هذه المعرفة تهم واضعي السياسات الإسلامية في العصر الحديث ، خاصة وأن بعض بلاد الشرق الأقصى أصبحت بالفعل قوى عالمية مؤثرة في السياسة العالمية ، وفي الاقتصاد العالمي . ومن الضروري التعرف عليها عن كثب لبناء استراتيجية إسلامية شاملة تجاهها أهميتها السياسية والاقتصادية في عالم اليوم والغد ، ولكن نتمكن من منافسة الغرب بل ووقف زحفه السياسي والفكري إلى الشعوب الشرقية ، ومواجهة الجهود التنصيرية الهائلة في هذه المناطق التي يجب أن تكون إسلامية فهي المجال الدعوي الحيوي بالنسبة للمسلمين .

٣- تأثير الفكر الاستشرافي في الغرب :

ومن الإيجابيات الاستشرافية غير المدرosa والمهملة إسلامياً التعرف على تأثير الفكر الاستشرافي في الفكر الغربي . فلقد انشغلنا بتأثير الاستشراق على الفكر الإسلامي وهو أمر مهم وخطير ، ولكن لم نهتم بمعرفة تأثيره في الفكر الغربي . وهو مفيد وإيجابي من عدة جهات . أولها معرفة حجم التأثير الإسلامي في الفكر الغربي . فالمعروفة الإسلامية التي نقلها الاستشراق إلى الغرب كان لها دور كبير في تطوير الفكر

الغربي بل وتعديل مسیرته في بعض الأحيان . فقد أدت الأعمال الإسلامية العلمية التي ترجمها المستشرقون قبل عصر النهضة الأوروبي إلى تطوير العلم الغربي ، وإدخال الغرب في مرحلة النهضة العلمية والتقني الصناعي والتكنولوجي الذي لا يزال يعيش الغرب حالياً . وتوضح هذه الأعمال فضل المسلمين على أوروبا وحضارتها ونهضتها . والأمر الثاني أن الترجمة التي قام بها المستشرقون للفكر الديني الإسلامي وبحوثهم في مجالاته المختلفة أدت إلى تطور الفكر الديني اليهودي والنصراني . ففضلاً عن الاستفادة العقدية في مجال بناء العقيدة ، وتنظيمها ، واصلاحها استفاد الغرب من المسلمين في مجال النقد الديني . فقد أعادت اليهودية والنصرانية النظر في الاعتقادات الخاصة بهما في ضوء النقد الإسلامي لها . وكانت الإصلاحات الدينية ردود فعل حقيقة تجاه هذا النقد الإسلامي . ففي اليهودية نجد الإصلاحات القرانية والساميرية وردود الفعل اليهودية الأرثوذك司ية تعكس تأثيراً إسلامياً حقيقياً . وفي النصرانية كان ظهور المذهب الإصلاحي البروتستانتي المعارض للكاثوليكية يعكس آثاراً إسلامية واضحة في بنود الإصلاح الأساسية . وبالإضافة إلى هذا كله نشأت حركة نقد « الكتاب المقدس » Biblical Criticism مستمدّة الكثير من نظرياتها في الكتب اليهودية والنصرانية من النقد القرآني والنقد الإسلامي لهذه الكتب في أعمال المسلمين التي ترجمها المستشرقون منذ وقت مبكر إلى اللغة اللاتينية وإلى اللغات الأوروبية الحديثة .

ويعتبر الاستشراف ، أيضاً ، مسؤولاً عن إدخال الموضوع الشرقي في

الأدب الغربي وفي الفنون الغربية المختلفة . فالأعمال الأدبية والفنية الإسلامية التي ترجمها المستشرقون إلى اللغات الأوروبية تركت أثراً واضحاً على الأدباء والفنانين الذين انبهروا بالموضوعات الأدبية والفنية الشرقية ^(٨٩)، وزاوجوا بينها وبين الموضوع الغربي في أعمالهم وقد كان لـ «ألف ليلة وليلة» وغيرها من أشكال القصص الشعبى الشرقي وقصص الحيوان فى «كلبلة ودمنة» أثر واضح في الأدب الغربية .

كل هذه التأثيرات التي ذكرناها مختصرة . هي نتيجة لقيام المستشرقين بترجمة الأعمال الإسلامية المختلفة ، والبحث فيها ، ونشرها في بيئتهم الأمر الذي ساعد على التعريف بالإسلام وحضارته من ناحية ، وإثراء الفكر الغربي بنقده ، وتصحيحه ؛ ومده بموضوعات جديدة وأشكال أدبية وفنية لم يعهدنا مكتتبه من تطوير أدابه وفنونه وإثرانها .

٤- تأثير الإسلام في المستشرقين :

وقع العديد من المستشرقين تحت تأثير الفكر الإسلامي الدارسين له . وبعد هذا من الإيجابيات الهامة للاستشراق ، وشهادة استشرافية على سلامة الفكر الإسلامي وصحته ، وقدرته على التغلغل في نفوس الدارسين له من غير أتباعه . وقد حصل هذا التأثير في نفوس بعض المستشرقين إلى الحد الذي هجروا فيه معتقدهم ، وأعلنوا الدخول في الإسلام . والأمثلة على هذا كثيرة نذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر - المستشرق الفرنسي إتيين دينيه (١٨٦١-١٩٢٩) ، والمستشرق النمساوي ليوبولد فايس المعروف في الإسلام باسم محمد أسد والذي أعلن إسلامه عام ١٩٢٧م ، والمستشرق الانجليزي وليم

بكتول (١٨٧٥-١٩٣٦) الذى أسلم عام ١٩٢٢م وترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية ، والمستشار الفرنسي فنساي مونتاي الذى أسلم عام ١٩٧٧م وتسمى بالمنصور بالله الشافعى (١٩٠٠)، والمستشار الجامايكي دوجلاس أرثر وأستاذ علم النفس بأمريكا ، وقد تسمى بعد الله أرثر ، والدكتور أرثر كين المتخصص فى الفلسفة وعلم النفس والذى أسلم عام ١٩٦١م ، والمستشار الفرنسي روجيه جارودى الذى أسلم فى السبعينات وتسمى رجاء جارودى ، ومريم جميلة ، والمستشار الإنجليزى ج. ل. بوركهارت (١٧٨٤-١٨١٧م) ، والمستشار فريتس كرنكرف (١٨٧٢-١٩٥٣م) وتسمى باسم محمد سالم الكرنكوى ، والمستشار الإنجليزى هـ. س فيلبي (١٨٨٥-١٩٦٠م) ، والمستشار الفرنسي موريس بوکاى (١٩١٠).

أما قائمة المعجبين بالإسلام والمعاطفين معه من المستشرقين فكبيرة وصعب حصرها ونذكر منهم جورج سيل (١٦٩٧-١٧٣٦م) والذى وصف بأنه نصف مسلم ، والمستشار الألمانى ج . ج. رايسل (١٧١٦-١٧٧٤)، وادوارد لين (١٨٠١-١٨٧٦م) وويفلرلد بلنت (١٨٤٠-١٩٢٢)، وادوارد بران (١٨٦٢-١٩٢٦)، والسير توماس أرنولد (١٨٦٤-١٩٣٠م) والمستشار ر. ف . بودلى ، والسير هاملتون جب (١٨٩٥-١٩٧١م) (١٩٢١).

٥- إيجابيات أخرى

وبالإضافة إلى العناصر السابقة التى وضحت بعض إيجابيات الاستشراق هناك بعض الآثار الإيجابية الأخرى والتى تلخصها فيما يلى:

١- جهود المستشرقين في تحقيق التراث الإسلامي والكشف عن الكثير من المخطوطات الإسلامية ، وتحقيقها ، نشرها ، وترجمة بعضها ، وعمل الفهارس لها ، وحفظ الممالك منها وترميمه ، وتصنيف المعاجم اللغوية في لغات الشعوب الإسلامية ، وهي جميًعا أعمال ذات قيمة علمية كبيرة وساعدت في إحداث النهضة العلمية الحديثة في العالم الإسلامي .

٢- ساعد المستشرقون في تطوير منهج نقدى للبحث في التراث الإسلامي نتج عنه إيقاظ الوعي النهجي لدى المسلمين الذين دفعهم هذا إلى النظر في الأصول النهجية والمبادئ البعثية في الكتابات الإسلامية الأولى من أجل تصصيل منهج إسلامي ينافس النهج الاستشرافي . وقد ساعد هذا الاهتمام النهجي في الوصول إلى معرفة إسلامية جديدة وقراءة التراث الإسلامي قراءة محلية نافعة .

٣- للاستشراق دوره في تحديد مكانة التراث الإسلامي بين تراث الشعوب الأخرى ، وذلك لاهتمامهم بالمنهج المقارن بين الإسلام والأديان الأخرى وبخاصة اليهودية والنصرانية . كما ساعدوا على تحديد مكانة الفكر الإسلامي العالمية كفكر عالمي منافس للحضارات والثقافات الأخرى ، وبيّنوا أيضًا فضل الحضارة الإسلامية على الحضارات الأخرى .

٤- ساعد الاستشراق في تعريف الغرب بالإسلام وحضارته وبالتراث العلمي للمسلمين من خلال ترجمة مئات الأعمال الإسلامية الهامة إلى اللغات الأوروبية ، خاصة وأن المسلمين لم يهتموا بترجمة تراثهم وتعريف الآخرين به ، وتركوا مهمة الترجمة للمستشرقين .

٥- اهتم الاستشراق بدراسة واقع العالم الإسلامي مما شجع المسلمين على دراسة أوضاعهم بأنفسهم ، والاهتمام بواقعهم ، وحل المشاكل المختلفة التي تواجههم . وقد وجد الاستشراق أنظار المسلمين إلى مواطن الضعف والقصور في حياتهم ومجتمعاتهم من خلال الدراسات الاستشرافية التحليلية للمجتمعات الإسلامية ، وللحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة : الأمر الذي دفع العلماء المسلمين إلى محاولة بلورة فكر إسلامي أصيل ومعاصر للرد على آراء المستشرقين ولعلاج مشاكل مجتمعاتهم المعاصرة .

٦- دفع الاستشراق المسلمين إلى ضرورة تطوير نظمهم التعليمي والعلمي ما أدى إلى ظهور نظم تعليمية وتربيوية جديدة تعتمد على الوسائل العلمية الحديثة في الكشف عن الفكر الإسلامي وتفسيره وتدرسيه . وأصبحت الجامعات الإسلامية تتسامى في مناهجها وأساليبها العلمية مع الجامعات الغربية دون أن تضحي بشخصيتها الإسلامية وبقيمها الدينية : بل وسعت جاهدة إلى تأصيل العلوم وربطها بالتراث الإسلامي ، وتوجيهها إسلامياً^(٩٣) .

الخاتمة

سبل مواجهة الفكر الاستشرافي

١- حقائق المواجهة :

إن تكوين موقف إسلامي من الاستشراف وأثاره في المجتمعات الإسلامية يجب أن يتم في ضوء الحقائق التالية :

أولاً : أن الاستشراف ظاهرة فكرية قديمة ، باقية ومستمرة طالما أن الصراع بين الغرب والشرق باق على مستوياته الدينية والسياسية والفكرية . وفي ضوء هذه الحقيقة يجب على المسلمين أن يتعاملوا مع الاستشراف في واقعية تامة ، وبنفس فعالية الاستشراف وдинاميكته دون الاستفراق في الآمال الخبالية التي يشير أصحابها إلى إمكانية القضاء المبرم على الاستشراف ومخاطره . إن المواجهة الإسلامية مع الاستشراف يجب أن تستند إلى العقل ولا تعين إلى العاطفة المولدة للأمال المستحببة للتحقيق . فضلاً عن أن الاستشراف حركة فكرية عقلية تواجه بالفكر والعقل الذي يدعوه الإيمان الصادق بالدين والثقة في قدرة الإسلام على المواجهة .

ثانياً : أن الاستشراف قوة فكرية هائلة تتمتع بنفوذ كبير في الغرب ، وتدعمها الحكومات الغربية والقوى الدينية اليهودية والنصرانية . ومواجهة مثل هذه القوة المدعومة دينياً وسياسياً لا يمكن أن تتم إلا من خلال قوة متساوية لها في النفوذ والدعم . ومثل هذه القوة الإسلامية

ليس لها وجود حالياً إذ لا توجد حركة فكرية إسلامية أو مؤسسة إسلامية تتمنى بالنفوذ والقوة التي تملكها الحركة الاستشراقية . ولذلك سيطول الصراع مع الاستشراق ، وستستمر الآثار الفكرية الاستشراقية في المجتمعات الإسلامية إلى أن تنشأ وتتطور حركة فكرية إسلامية مضادة للاستشراق .

ثالثاً : أن الموقف الإسلامي من الاستشراق يجب أن يتعدد في ضوء سلبيات الاستشراق وأيجابياته : بمعنى أن المواجهة الفكرية للاستشراق يجب أن ترتكز على السلبيات ، وتستفيد من الإيجابيات . وبهذا نضمن للمواجهة موضوعيتها ، وبعدها عن التعامل العاطفي والعشوائي مع الظاهرة الاستشراقية ، وكذلك تخلصها من العمومية التي تعانى منها دراسات المسلمين عن الاستشراق . وفي هذه المواجهة الفكرية لابد من التعامل مع المستشرقين كل على حدة ، فلا تجتمعهم جميعاً في قارب واحد ، ونوجه لهم جميعاً نفس الاتهامات . فالمستشرقون منقسمون على أنفسهم ، وموافقهم ليست واحدة ، واتجاهاتهم متفايرة ، ومنابعهم الثقافية متعددة ومختلفة . ولذلك فالتعامل العلمي السليم معهم يتم من خلال فحص آراء كل مستشرق على حدة؛ وتكوين موقف منه مبني على أساس من أعماله العلمية ، وموافقه السياسية والدينية وتطورات هذه المواقف في مسيرته العلمية .

رابعاً : أن الفكر الاستشرافي يمثل كل المذاهب والآيدلوجيات المضادة للإسلام . كما أنه يمثل في المقام الأول الفكر الدينى الغربى بدرستيه اليهودية والنصرانية . وهذا يعني أن الفكر الاستشرافي قد احتوى بين

جنباته على كل الرؤى الدينية والفكرية المعادية للإسلام . وتعتمد المذاهب الدينية والفكرية اعتماداً كلياً على المستشرقين في تصدر أفكارها إلى الشرق ، وفي وضع الصياغة المناسبة لهذه المذاهب حسب ظروف وأوضاع كل شعب شرقى على حدة . ولذلك نرى أن أي مجهد يبذل إسلامياً في مقاومة الشبرعية ، والاشراكية ، والرأسمالية ، والعلمانية ، والمادية ، واللبيرالية - بمعناها الغربي - وغيرها من المذاهب .. هو مجهد مفيد في مواجهة الآثار الاستشرافية لأنها آثار متنوعة وناتجة عن اختلاف انتسابات المستشرقين الأيدلوجية .

٢- سبل مواجهة الاستشراق :

أما سُبُل مواجهة الآثار الفكرية الاستشرافية في المجتمعات الإسلامية^(٩٥) فهي متعددة نذكر منها ما يلى :

أولاً : الدراسة العلمية الواعية المتعمقة للاستشراق . فعلى الرغم من قِدم الظاهرة الاستشرافية وعظمتها خطورتها لارتفاع المواجهة العلمية الإسلامية لها ضعيفة ولا ترقى إلى مستوى الفكر الاستشرافي . والسبب الرئيسي في هذا الضعف عدم وجود أقسام علمية متخصصة في الدراسات الاستشرافية في الجامعات الإسلامية ، وعدم وجود مراكز بحوث إسلامية متخصصة في الاستشراق تتبع أعماله ، وتناولها بالبحث ، والتحليل ، والنقد ، والترجمة . وتعتبر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة حيث تنبهت منذ زمن إلى هذا الأمر فأنشأت قسماً علمياً أكاديمياً للاستشراق في كلية الدعوة بالمدينة المنورة ، ومركزاً للدراسات الاستشرافية والمحضارية في نفس

الكلية ، بالإضافة إلى وحدة للبحوث الاستشرافية في عمادة البحث العلمي بالرياض . وبهذا جمعت الجامعة بين الاهتمام بالتدريس والبحث في مجال الاستشراق . وهو أمر يجب أن تحتذى به كل الجامعات الإسلامية من أجل تكوين قاعدة من العلماء المسلمين المزهلين دينياً وعلمياً لمواجهة الاستشراق . ولذلك نوصي هنا بضرورة أن تتبني رابطة الجامعات الإسلامية فكرة إنشاء أقسام للدراسات الاستشرافية والتنصيرية وتعزيزها في كل جامعات العالم الإسلامي . فهذه خطوة أساسية في مواجهة الفكر الاستشرافي الذي يواجهنا بثبات من أقسام الاستشراق ومراكز البحوث المتخصصة والتي يعمل بها جيش من المستشرقين ، ويبلغ عمر بعضها مئات السنين .

ثانياً : مطالبة الإنسان المسلم عامة ، والمشف خاصه ، بضرورة العودة إلى الدين ، والتمسك بتعاليمه ومبادئه ، وأداته الفروض والواجبات الدينية المطلوبة منه ، وتشريف نفسه دينياً ، والتتفق في أمر الدين . ففي هذا كله يتحقق تحصين الإنسان المسلم ضد الآراء المنحرفة التي ينشرها الاستشراق والتنصير . وفي هذا أيضاً تحصين للمجتمعات الإسلامية ضد الغزو النكري الاستشرافي .

ثالثاً : مطالبة الحكومات والمؤسسات الإسلامية القادرة بضرورة التحكم فيما تبيشه وسائل الإعلام المرئية والمسموعة من مواد فكرية متنوعة معادية لل الفكر الإسلامي ومساعدة على تسرب الفكر الغربي المنحرف إلى المجتمعات الإسلامية . ومطالبة الجهات الإعلامية المختلفة ، وبخاصة الصحفة ، بضرورة وضع رقابة صارمة على ما يُنشر في الجرائد

اليومية من أفكار استشرافية . ونذكر في هذا المخصوص بدور الصحافة العربية غير المسئولة في استخدام ونشر بعض المصطلحات الاستشرافية دونوعي ومعرفة بدلالة هذه المصطلحات . ونضرب مثلاً بمصطلح «الأصولية» الذي ذاع وانتشر استخدامه المفلوط في وسائل الإعلام العربية والإسلامية ما أحدث نوعاً من الخلط والغموض والتشويه للمصطلح الإسلامي الصحيح . وساد استخدام المصطلح بدلاته الاستشرافية على «الإرهاب الديني» و«التزمت» و«الجمود» و«التخلف» ، وغير ذلك من المعانى التي أصقها الاستشراف بالمصطلح الإسلامي .

رابعاً : تتبعة الفكر الإسلامي من الأفكار المشبوهة والمشوهة التي دخلته عبر السنين بفعل الفرق والحركات الضالة ، وبفعل الاستشراف والتنصير . ويتعذر الأمر مراجعة مصادر التراث الإسلامي في كل المجالات لتنقيتها ، وتخليصها من كل الأفكار غير الإسلامية ومواطن الضعف التي كثيراً ما يعتمد عليها المستشركون والمنصرون في الاستدلال على أفكارهم وفي إثارة الشبهات . وفي هذا المخصوص ، لا بد من تخليص الفكر الإسلامي من جسمين غربيين تغلغلما فيه ، وتسببا في كثير من التشويه له . الأول عرفه العلماء المسلمين باسم «الإسرائيлиيات» أي الأفكار الإسرائيلية وغيرها مما وجد طريقه إلى بعض كتب التفسير والحديث وبعض مصادر التاريخ الإسلامي . ويجدر الإشارة إلى أن مصطلح «الإسرائيلييات» لا يشير فقط إلى الأفكار اليهودية ، ولكنه يستخدم للدلالة على كل الأفكار الأجنبية المفترضة التي تم إدخالها في الفكر الإسلامي ^(٩٤) .

أما الجسم الثاني الغريب الذى تسرب إلى الفكر الإسلامى فهو أحدث من «الإسرائيلىات». وقد اختار بعض العلماء المسلمين تسميتها بالغزو الفكرى الحديث . ويفضّل فى هذا المقام إطلاق اسم جديد له وهو «الاستشراقيات». وهو مصطلح قد يبو غرباً لأول وهلة ولكنه معبر تماماً حقيقياً عن مصدر الغزو الفكرى الحديث ألا وهو الاستشراق . وإذا كان العلماء المسلمين قد استقرروا على تسمية الغزو الفكرى القديم بـ «الإسرائيلىات» فمن الصحة تسمية هذا الغزو الفكرى الحديث بـ «الاستشراقيات». وهو مصطلح مناسب لأن الاستشراق هو مصدر كل الأفكار الأجنبية المنعرفة والشبهات فى الفكر الإسلامى الحديث ، كما أن له علاقة دلالية بمصطلح «الإسرائيلىات» القديم ليس هنا مكان تفصيلها . فالاستشراقيات امتداد طبيعى للإسرائيلىات من حيث الدلالة ، وفيها من الشمولية ما يجعلها كمصطلح معتبرة على «الإسرائيلىات» . ومن الطبيعي أن نقول هنا أن واجب تخلص الفكر الإسلامى من «الإسرائيلىات» القديمة والاستشراقيات الحديثة يقع على عاتق العلماء المسلمين المعاذين الفيورين على الدين. وهو عمل ضخم يعبّ أن يتولاه فريق من العلماء لعدد من السنين ويدعم معنوياً ومادياً كبيراً من الدول والمؤسسات الإسلامية المعنية بالتراث الإسلامي .

خامساً : ضرورة العمل على توفير الكتاب الإسلامى البديل للكتاب الاستشرافي ، وبخاصة فى اللغات الأجنبية التى يعتمد أصحابها اعتماداً كلياً على الكتابات الاستشرافية فى الحصول على المعرفة الإسلامية . إن توفير المصدر الإسلامى فى اللغات الأوروبية يؤدى إلى

إحداث نوع من التوازن في مصادر المعرفة عن الإسلام والمجتمعات الإسلامية ، ويعطي الفرصة للمثقف الغربي وطالب العلم المتخصص في الإسلام والمسلمين لكي يقارن ويوازن بين المعرفة الاستشرافية عن الإسلام والمعرفة التي تقدمها المصادر الإسلامية حتى يصل إلى الحقيقة التي ينشدها ، فتقلل بالتدرج من اعتماده على المصادر الاستشرافية . ويدخل هذا ضمن المجهود العلمي المطلوب من العلماء المسلمين العارفين باللغات الأوروبية . فمن الواجب عليهم اقتحام مجال التأليف عن الإسلام في اللغات الأجنبية عامة . وهناك أيضاً مجال ترجمة المصادر الإسلامية الصحيحة إلى هذه اللغات . وهو عمل عظيم له مردوده الكبير في مقاومة الفكر الاستشرافي ، وتقليل الاعتماد على المصادر الاستشرافية ، وله أيضاً فوائد الدعوية فوجود الكتاب الإسلامي الصحيح في اللغات الأجنبية المختلفة يُسهل عملية انتشار الإسلام إذ أن إحدى عقبات انتشار الإسلام ، وبخاصة في الغرب ، سببها عدم وجود الكتاب الإسلامي .

سادساً : يرتبط باللحظة السابقة توفير الكتاب الإسلامي الصحيح للقارئ والمثقف المسلم وكذلك للمتخصص المسلم حتى يقل اعتماده على المصادر الاستشرافية في لغاتها الأجنبية أو المترجم منها إلى اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية . ومن أول الأعمال المطلوبة بشكل أساسي إعداد دائرة معارف إسلامية يكتبها مسلمون لتحول محل دائرة المعارف الاستشرافية المترجمة إلى اللغة العربية والسائلة في استخدام لدى المتخصصين والتي هي مصدر انتشار كل شبكات المستشرقين في الأوساط الفكرية الإسلامية .

سابعاً : الإسراع في تحقيق تنمية المجتمعات الإسلامية ، ووضع حلول إسلامية ناجعة لمشاكلها بدلاً من التوجه إلى الغرب لحل المشاكل والأزمات الإسلامية على اختلاف أشكالها فينفتح بذلك باب للغزو النكري . والعمل على تحقيق استقلال المجتمعات الإسلامية من التبعية للغرب سياسياً واقتصادياً وفكرياً ، وتحقيق التعاون الجاد بين المجتمعات المسلمة لوضع حلول داخلية لمشاكل العالم الإسلامي .

ثامناً : تقوية الدعوة الإسلامية كمؤسسة فكرية قادرة على مواجهة آثار الفكر الاستشرافي في المجتمعات الإسلامية إذا ما توفرت لها الإمكانيات المتاحة للاستشراف والتنصير . وضرورة تطوير العمل الدعوي في الغرب بما يناسب الأوضاع الغربية دينياً وفكرياً ، وتربية دعاء قادرين على مواجهة المستشرقين والمنصرين ؛ وتأسيس وحدات لشئون الاستشراف والتنصير في المؤسسات الدعوية الكبرى لتابعة الأنشطة الاستشرافية والتنصيرية ، والتخفيض لمواجهتها على أساس من المعرفة العلمية بها .

تم بحمد الله

الحواشى والمراجع

- ١ - حسن المعايرجي « المعرفون للكلم : الترجمات اللاتينية الأولى للقرآن الكريم وتأثيرها على الترجمات باللغات الأوربية » ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٤٨ ، يونيو ١٩٨٧ م ، ص ٥٤ .
- ٢ - أبو الأعلى المودودي ، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ، تعریف خليل أحمد الحامدی ، دار القلم ، الكويت ١٣٩٨ هـ ، ص ١١ .
- ٣ - ساسى سالم الحاج ، الظاهرة الاستشرافية وأثرها على الدراسات الإسلامية ، الجزء الأول ، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي ، مالطة ١٩٩١ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .
- ٤ - جوزيف سوموجى ، « أجناس جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) » ، مجلة العالم الإسلامي التبشيرية ، العدد الثالث يوليو ١٩٥١ ، نقلها إلى العربية الصديق بشير نصر ، في كتاب قضايا الفكر الإسلامي كما يراها بعض المستشرقين . منشورات كلية الدعوة ، طرابلس ١٩٨٨ ، ص ٣٣٦ .
- ٥ - انظر في موضوع الخلفية الثقافية للمستشرقين :
- محمود حمدى زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ، كتاب الأمة رقم ٥ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ .
- مصطفى عمر حلبي ، الخلفية الثقافية لاتجاهات المستشرقين في دراسة شخصية الرسول ﷺ ، مجلة المنهل ٤٧١ جدة ١٤٠٩ هـ ص ٣٠ - ٤٥ .
- ٦ - انظر في هذا : ادوارد سعيد ، الاستشراق: المعرفة السلطة والإثناء ، ترجمة : كمال أبو ديب ، بيروت ١٩٨٤ .
- ٧ - زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص ١١٦ .

- ٨ - المرجع السابق ، ص ١١٦ .
- ٩ - سورة القصص الآية ٧٧ .
- ١٠ - سورة الشورى الآية ١١ .
- ١١ - انظر مثلاً أعمال كل من ماسينيبيون ، التصور الإسلامي والتصرف المسيحي في العصر الوسيط (١٩٥٦) و ميجيل كروث هرنانديز ، ابن عربى المرسى والروحانية المسيحية الإسلامية (١٩٦٥) ، وأسين بلاطوس ، الإسلام في ثوب نصراني ، (مدريد ١٩٣١) . نقلًا عن تجنب المعقبى . المستشرقون .
- ١٢ - زقزوق ، الخلفية الثقافية ص ١١٦ .
- ١٣ - يقول الزيادى : « الهدف الثاني الذى كان يتوجه الصهاينة من تبني الدراسات (الاستشراقية) هو استخدامها كبداية لدراسات عنصرية استعمارية تهدف إلى إظهار كل ما يرفع من شأن اليهود ، ويقلل من قيمة العرب ، واعتبار كل الدعوات التي تؤكد أرض الميعاد والعودة إلى فلسطين . وكانت الدراسات الاستشراقية على أيدي جولدتسىهر ومرجلوبوث ورينان وجع الأرضية الجديدة التي بدأ اليهود من خلالها الاستفادة من حركة الاستشراق والتأثير فيها » . محمد الزيادى ، « أثر اليهودية والصهيونية على الاستشراق » رسالة الم Bard ، فبراير ١٩٨٩ ص ١١٨ وانتظر رضوان السيد ، « اليهودية والصهيونية في الاستشراق » ، مجلة الفكر الإسلامي ، العدد ١ السنة ١٩٨٩ ، حيث يؤكد رضوان على اتجاه المستشرقين اليهود إلى إنبات الاستمرار الشعبي والحضاري اليهودي في عالم الإسلام بالشرق وفلسطين عبر التاريخ الإسلامي كله .
- ١٤ - يلخص محمد السماك قاعدة مائيسى بالصهيونية المسيحية في ثلاثة أمور : أن اليهود هم شعب الله المختار وأن ميشافا إلهايا يربط اليهود

- بالأرض المقدسة في فلسطين ، وأن الإيمان المسيحي بعودة السيد المسيح مرتبط بقيام دولة صهيون أى بإعادة تجميع اليهود في فلسطين حتى يظهر المسيح فيهم . انظر محمد السماك ، الأصولية الإنجليلية أو الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكي ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، مالطة ١٩٩١ ، ص ٣٦ - ٣٧ . انظر أيضاً رجبنا الشريف ، الصهيونية غير اليهودية : جذورها في التاريخ الغربي ، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز ، العدد ٩٦ سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٥ م . وانظر : يوسف الحسن ، بعد الدين في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني ، دراسة في الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩٠ .
- ١٥ - د . ابراهيم عكاشه على ، ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٧ هـ ، ص ٢٦ - ٣٢ .
- ١٦ - أحمد سعد الدين الباطي ، التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ١٣٨ - ١٤١ .
- ١٧ - انظر نذير حمدان ، مستشرقيون : سبابيون - جامعيون - مجتمعيون ، مكتبة الصديق للنشر والتوزيع ، الطائف ، ١٤٠٨ هـ ، ص ٧ - ٨ .
- ١٨ - محمد خليفة حسن ، « الوحدة الثقافية للمنطقة العربية في التاريخ القديم » ، مجلة الوحدة ، العدد ٤٢ ، ١٩٨٨ ، ص ٩٩ . وانظر أيضاً محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
- ١٩ - على جريشة ، حاضر العالم الإسلامي ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ،

جلدة ١٤٠٨ هـ ، ص ٧٢ .

٢٠ - المرجع السابق ، ص ٧٢ وانظر محمد كاظم حبيب ، مذكرة فصل الدين عن الدولة ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٧٢ .

٢١ - المرجع السابق ص ٧١ وينذكر عبد المتعال الجابري أن ضياع الخلافة قد تسبب في الكثير من المتابع والآثار السلبية في الحياة الإسلامية منها فقدان الهرة الإسلامية ، وانتشار الاستبداد ، وتغيير النظام الاجتماعي ، ومعه الشخصية الاجتماعية ، وفقدان الرعامة الدولة . انظر : عبد المتعال محمد الجبوري ، نظام الحكم في الإسلام بأقلام فلاسفة النصارى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٥٣ - ٥٧ .

٢٢ - يوضح محمد كاظم حبيب الخلبة الاستثنائية في فهم النظام السياسي في الإسلام بقوله : « فالمستشارون يحددون مفهوم الدين والدولة من طبيعة الصلة الموجودة بين المسبيحة والحكم ، والتي ثأرت بعوامل متعددة ... وتبلورت فيما يسمونه بالكتيبة والدولة ، أو بتسيير السلطتين . وعلى هذا الأساس - أى على أساس الفصل والتمييز بين الكتبة والدولة - حدد الغربيون معنى الدين الذي يوجه الناحية الروحية لدى الأقواد ، ومعنى الدولة التي تنظم شئون حبائدهم وعلاقاتهم فيما بينهم ، ولذلك فإن المستشارين يحاولون أن يخضعوا الإسلام لتلك المفاهيم » محمد كاظم حبيب مذكرة فصل الدين عن الدولة ص ٦٢ .

٢٣ - محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ، دار الشرق ، دار الشروق ، بيروت ١٩٨٣ ص ٢٥٣ - ٢٥١ . وانظر أيضاً : أمينة الصاوي ، عبد العزيز شرف . جارودي والحضارة الإسلامية ، دار القible للثقافة الإسلامية ، جدة ١٩٨٥ ، ص

- ٢٤ - المرجع السابق ص ١١٨ .
- ٢٥ - الماوري ، أيو الحسن محمد بن حبيب ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨ م ص ٥ .
- ٢٦ - محمد كاظم حبيب ، مؤامرة فصل الدين عن الدولة ، ص ٥٩ - ٦٠ .
- ٢٧ - يقول ادوارد سعيد إن الاستشراق من الناحية التفاصيلية « شكل من أشكال المصاب التوهّي (بارانويا) ومعرفة من نقط آخر مختلف عن المعرفة التاريخية العادلة » ادوارد سعيد ، الاستشراق ص ١٠٠ .
- ٢٨ - محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ص ٢٠١ ، ٢٠٤ .
- ٢٩ - أمينة الصاوي وعبد العزيز شرف ، جارودى والحضارة الإسلامية ص ٢٧٨ .
- ٣٠ - محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٧٨ وانظر أنور الجندي ، مفاهيم العلوم الاجتماعية ، دار الاعتصام القاهرة ١٩٧٧ ص ٩٨ .
- ٣١ - الشيخ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة العاشرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٢١٩ .
- ٣٢ - المرجع السابق ص ١٨٠ .
- ٣٣ - يوسف القرضاوى ، المصادن العامة للإسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٥ م ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .
- ٣٤ - محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ص ١٩٠ - ١٩١ .
- ٣٥ - المرجع السابق ، ص ١٩٧ .
- ٣٦ - المرجع السابق ، ص ١٩٣ .
- ٣٧ - سورة النور الآية ٣٣ .
- ٣٨ - يوسف القرضاوى ، المصادن العامة للإسلام ، ص ١٧٣ .

- ٣٩- هامilton جب وآخرون ، وجهة الإسلام : نظرية في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، المطبعة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص ٢٠-١٩ . وانظر أيضًا ، آدم متر . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، الجزء الثاني ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ م، ص ٣٧١ .
- ٤٠- جب ، المرجع السابق ص ٢٠ .
- ٤١- المرجع السابق ص ٢٠ .
- ٤٢- المرجع السابق ص ٢١ .
- ٤٣- المرجع السابق ص ٢٢ .
- ٤٤- د. محسود أبو السعود ، أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع ، القسم الرابع ضمن البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي بالرياض ١٣٩٦هـ. منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠١ هـ ، ص ٣٨٢-٣٨٤ .
- ٤٥- المرجع السابق ص ٣٨٤-٣٨٥ .
- ٤٦- د. عبد الهادي على النجار ، الإسلام والاقتصاد ، دراسة في المنظور الإسلامي لأبرز القضايا الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة ، سلسلة عالم المعرفة ، المد ٦٣ ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ٢٣ .
- ٤٧- المرجع السابق ص ١٦ .
- ٤٨- المرجع السابق ص ١٦ .
- ٤٩- سيد شوريجي عبد المولى ، الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون . دراسة تحليلية ، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٩هـ ، ص ٩-١١ .

- ٥٤- د. محمد أنس الزرقا، «الزكاة عند شاخت والقراص عند يودفيتش. دراسة وتقويم» في : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ، الجزء الثاني ، الكويت ، ١٤٠٥ هـ. ص ٢٤٧ .
- ٥٥- أمينة الصاوي وعبد العزيز شرف ، جارودي والحضارة الإسلامية ، ص ٢٤ .
- Albert Hourani, Europe and the Middle East, The Macmillan ٥٦
co. , London, 1980, p. 12-13 .
- ٥٣- أنظر في ذلك :
- Muhammad Benaboud , "Orientalism and the Arab Elite" , in , Islamic Quarterly . p. 3
- Bernard Lewis "Islam and West" in National and International Politics in the Middle East ed . by E. Ingram, Frank Cass, London, 1986 , p. 27 .
- ٥٥- د. محمد خليفة حسن ، مسيرة الوعي العربي . مجلة فكر العدد ١٥ ، ١٩٨٩ م . ص ٥٨ .
- ٥٦- د. محمد خليفة حسن ، الوحدة الثقافية للمنطقة العربية في التاريخ القديم ، ص ٩٩ .
- ٥٧- د. محمد خليفة حسن ، علاقة الإسلام باليهودية : رؤية إسلامية في مصادر التوراه الحالية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، وانتظر أيضاً د. قنديل محمد قنديل ، النقد الأعلى للكتاب المقدس في فكر الغرب وبنابعه الإسلامية ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٩٨٩ م .
- ٥٨- (إنا نحن نزلنا الذكر وإنما له حافظون) . سورة الحجر الآية ٩ .

- ٦٩- سورة البقرة الآية ٧٩ .
- ٦٠- سورة البقرة الآية ٥٩ .
- ٦١- سورة المائدة الآية ١٣ .
- ٦٢- سورة النساء الآية ٨٢ .
- ٦٣- الشیخ محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٤٧٢ .
- ٦٤- د. عبد الحميد متولى، الإسلام و موقف علماء المستشرقين ، عكاظ للنشر والتوزيع ، جلة ١٤٠٣ هـ، ص ١٠-١٢ .
- ٦٥- أحمد على الملا ، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، دار الفكر (بدون تاريخ) ص ٨١ .
- ٦٦- د. عابد بن محمد السفياني، المستشرقون ومن تابعهم و موقفهم من ثبات الشريعة و شمولها دراسة و تطبيقاً ، مكتبة المنارة ، مكة المكرمة ، ١٤٠٨ هـ ١٤١٣ .
- ٦٧- د. عبد الحميد متولى، الإسلام و موقف علماء المستشرقين ، ص ٤٢-٤٥ .
- ٦٨- المرجع السابق ، ص ٤٩ .
- ٦٩- المرجع السابق ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٥٩ و انظر أحمد على الملا ، ص ٨٣ .
- ٧٠- وكذلك كارلو ألفونسو نالبино ، «نظارات في علاقات الفقه الإسلامي بالقانون الروماني»، في كتاب : هل للقانون الروماني تأثير على الفقه الإسلامي ، دار البحوث العلمية ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ١٩ - ٢٠ .
- ٧١- متولى ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٥ وكذلك الملا ص ٨٥ .
- ٧٢- الملا ص ٨٤ ، ٨٥ ، و انظر متولى ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ .
- ٧٣- د. محمد سليم العروي ، «النظام القانوني الإسلامي في الدراسات الاستشرافية المعاصرة، دراسة لنفع المستشرق نويل كولسون»، في مناهج

- المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، الجزء الأول ، ص ٢٥٧ .
- ٧٣- المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .
- ٧٤- د. اسماعيل عمايرة ، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية ، دار حزین ، عمان ، ١٩٩٢ ، ص ٥٧-٥٨ .
- ٧٥- جبیرار تروبو ، «نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سیبویه» ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردنية ، العدد الأول ١٣٩٨ هـ. ١٩٧٨ .
- ٧٦- المرجع السابق .
- ٧٧- المرجع السابق .
- ٧٨- د. يحيى الجبوری ، «المستشرقون والشعر الجاهلي». سلسلة كتب الثقافة المقارنة ، الاستشراق ، بخداد ١٩٨٧ ، ص ٧٨-٧٩ ، ومقال نولذکه منشور في كتاب عبد الرحمن بدوى «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي» ، دار العلم للملائين بيروت ١٩٧٩ م ص ٤٠-٤٧ .
- ٧٩- يحيى الجبوری ص ٧٩ .
- ٨٠- المرجع السابق ص ٨٣-٨٠ ومقال ألوارد مترجم في عبد الرحمن بدوى «دراسات المستشرقين ...» ص ٤١-٤٦ .
- ٨١- محمد مصطفى هدارة ، موقف مرجلبريث من الشعر العربي في مناجع المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، الجزء الأول، ص ٣٩٦-٤٣٨ ، وانظر كذلك يحيى الجبوری ، المستشرقون والشعر الجاهلي ص ٨٨-٨٩ .
- ٨٢- وانظر فيه أيضاً نقد المستشرق بروينتش لأراء مرجلبريث . ص ٩٢-٨٩ .
- ٨٣- د. عبد الصبور شاهين ، في علم اللغة العام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٤م ، ص ٢٦٨-٢٦٩ .
- ٨٤- د. صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملائين ، الطبعة



- ال السادسة ، ١٩٧٦ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٩ ، وانظر د. اسامي الفاروقى نظرية الفن الاسلامى ، مجلة المسلم المعاصر العدد ٢٥ ، ١٤٠١ هـ ص ١٥٦ - ١٦٢ .
- ٨٤ - روم لاندو ، الإسلام والعرب ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملاتين ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٢٨١ - ٢٨٠ ، ٢٦٩ ، ٢٤٦ - ٢٤٥ ، ٢٤٥ مذكور ، «لغة العلم » مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٠ ، ١٩٦٦ القاهرة .
- ٨٥ - نجيب العقبي ، المستشرقون ، الجزء الأول ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٨ ، ٩٥ وانظر روم لاندو ، الإسلام والعرب ، ص ٩ ، ٢٤٥ .
- ٨٦ - روم لاندو ، ص ٢٤٩ - ٢٤٦ وانظر أيضًا ، محمد قطب ، كيف نكتب التاريخ الإسلامي ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، ١٤١٢ هـ ، ١٣٨ .
- ٨٧ - محمد قطب ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٨ .
- ٨٨ - سورة الحجرات ، الآية ١٣ .
- ٨٩ - د. زينات بيطار ، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي ، سلسلة عالم المعرفة العدد ١٥٧ الكويت ١٩٩٢ ص ٩ ، ١٣ .
- ٩٠ - د. عماد الدين خليل ، قالوا عن الإسلام ، الندوة للشباب الإسلامي ، الرياض ١٤١٢ هـ ، ص ٦٣ ، ٧٧ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ١٥٠ ، ٢٣٠ .
- ٩١ - المرجع السابق ، ص ١٥ ، ٢٢٠ . انظر أيضًا نجيب العقبي ، المستشرقون ، الجزء الثاني ، ص ٥٢ ، ٩٧ و ١١٦ .
- ٩٢ - العقبي ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٩٥ ، ١٢٩ ، ١٩٢ .
- ٩٣ - عمادة البحث العلمي . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية . المشروع - برنامج العمل - الإنجازات الرياض ، ١٤١٣ هـ ، وانظر أيضًا د. اسامي الفاروقى ، الوجيز

- فى إسلامية المعرفة ، المعهد العالمى للتفكير الإسلامى ، هيرندن ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٨٧ م .
- ٩٤- د. محمد حسين النهبي، الروحى والقرآن الكريم ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م . ص ١٤٣-١٤٨ .
- ٩٥- اقترح العديد من العلماء المسلمين وسائل لمواجهة الاستشراق ومن أهمهم : د. محمود حمدى زقزيق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، ص ١٢٣-١٥٤ ، أبو الحسن النبوى ، الإسلام والمستشرقون ، ندوة العلماء بالهند . انظر أيضًا : الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين. مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٥ هـ . وانظر د. محمد الدسوقي ، الفكر الاستشرافي فى ميزان النقد العلمي، دراسات استشاراتية وحضارية ، مركز الدراسات الاستشاراتية والحضارية بكلية الدعوة بالمدينة المنورة ، العدد الأول، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م ص ٨٧ - ١٣٥ .

رقم الإيداع ٩٧/٣٢٨٧

الترقيم الدولي ٥ - ٦٢ - ٥٤ ٨٧ - I.S.B.N 977

دار روتايرنت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب الموق

آثار الفكر الاستشرافي في المجتمعات الإسلامية

فاضل



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES